الفصل الرابع

مواقف العلماء من قضيتي التفسير العلمي للقرآن الكريم والإعجاز العلمي فيه

طال الجدل حول جواز تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات علوم العصر وفنونه، والانطلاق من ذلك إلى إثبات سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى العديد من حقائق الوجود وهو الذي نسميه بالإعجاز العلمي في القرآن الكريم. وتفاوتت مواقف العلماء من ذلك تفاوتاً كبيراً بين مضيقين وموسعين ومعتدلين، مما يمكن أن نوجزه فيما يلي:

أولاً: موقف المُضَيِّقين:

وهو الموقف الذي يرى أصحابه أن تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي ـ الذي لا يجوز ـ استناداً إلى أقوال منسوبة لرسول الله ﷺ منها قوله الشريف: «**من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ**»، و«**من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. واستناداً إلى أقوال منسوبة إلى كل من الخليفتين الراشدين: أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ من قول الأول: «أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي؟» وقول الثاني: «اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكِلُوه إلى ربه».

وكذلك استناداً إلى قول كل من سعيد بن المسيب وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في

(١) الترمذي في «سننه» رقم (٢٩٥٠و٢٩٥١)، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٣٣).

الصحيح المنقول عن الأول: «إنا لا نقول في القرآن شيئاً»، وعن الثاني: «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير»؛ واستناداً كذلك إلى القول المنسوب إلى مسروق بن الأجدع ﷺ: «اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية عن الله».

ولقد فات أصحاب هذا الموقف أن المقصود بـ (الرأي) في الحديث السابق هو (الهوى)، لا الرأي المنطقي المبني على الحجة الواضحة والبرهان المقبول، ويؤكد ذلك عبارة «بغير علم» التي وردت في الحديث الثاني، هذا بغض النظر عن كون الحديثين قد اعتبرا من ضعاف السند. كذلك فاتهم أن ما قد ورد على لسان بعض الصحابة والتابعين مما يوحي بالتحرج من القول في القرآن الكريم بالرأي الاجتهادي، إنما هو من قبيل الورع، والتأدب في الحديث عن كلام الله، خاصة وأنهم كانوا قد فطروا على فهم اللغة العربية، وفطنوا بها وبأسرارها، ودرجوا على عادات المجتمع العربي، وألموا بأسباب النزول، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحي، وسمعوا تلاوته وتفسيره للقرآن الكريم واستعانوا به على فهم ما وقفوا دونه، وأدركوا تفاصيل سنته الشريفة، فهل يمكن لمن توافر له كل ذلك أن يكون له مجال للاجتهاد بالرأي؟ خاصة وأن العصر لم يكن عصر تقدم علمي كالذي نعيشه، وأنهم كانوا لا يزالون قريبي عهد بالجاهلية التي كان قد خيم فيها على العالم أجمع ركام من العقائد الفاسدة، والتصورات الخاطئة، والأفكار السقيمة، والأوهام والأساطير، ولم يسلم من ذلك الركام أحد، حتى أصحاب الحضارات البائدة كلها، ولذلك ركزت دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ على قضايا العقيدة الصحيحة، والعبادات المفروضة، وركائز كل من مكارم الأخلاق وحسن المعاملات.

وخاصة كذلك وأن العصر بعد ذلك كان عصر انتشار للإسلام، ودخول الكثيرين من أصحاب العقائد واللغات الأخرى في دين الله أفواجاً، ومعهم خلفياتهم الفكرية الموروثة، والتي لم يكونوا قد تخلصوا منها كُلِّيَّةً بمجرد دخولهم في دين الله، وأن أعداداً غير قليلة من غلاة اليهود كانوا قد دخلوا الإسلام ـ كما

دخل أسلافهم من قبل إلى دين عيسى ابن مريم ـ ليأتمروا به، ويتآمروا عليه، ويكيدوا له وذلك بتأويل كلام الله على وجوه غير صحيحة من أجل تفتيت وحدة صف المؤمنين وبث بذور الفرقة بينهم، وكان من نتائج ذلك كله هذا الفكر الغريب الذي عرف فيما بعد باسم «الإسرائيليات» نسبة إلى السلالات الفاسدة من بني إسرائيل ـ أي اليهود ـ الذين كثر دسهم على دين الله، وعلى أنبيائه ورسله.

وكان من نتائجه كذلك بروز الشيع والفرق والطرائق المختلفة، ومحاولة كل فرقة منها الانتصار لرأيها بالقرآن الكريم.. وهذا هو «**الهوى**» الذي عبر عنه بـ «**الرأي**» فيما نسب من أقوال إلى رسول الله ﷺ وإلى عدد من صحابته وتابعيهم ـ عليهم رضوان الله أجمعين ـ.

كذلك فقد فات هؤلاء المضيّقين وهم ينادون بعدم الاجتهاد بالرأي في فهم كتاب الله، والوقوف عند حدود المأثور ـ (وهو ما نقل عن رسول الله ﷺ مباشرة، أو عن صحابته الكرام، أو عمن عاصر الصحابة من التابعين) ـ موكلين ما لم يفسره التراث المنقول إلى الله ـ تعالى ـ، وهو ما عرف باسم «**منهج التفسير بالمأثور**» أو «**التفسير بالمنقول**»، وفاتهم أن المقصود بالرأي هنا هو الهوى وليس الرأي المؤسس على قواعد صحيحة من حقائق الدين والعلم،خاصة وأن التفسير بالمأثور لم يشمل القرآن الكريم كله، فلحكمة قد ندرك طرفاً منها اليوم ـ لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد في كل آية من آيات القرآن الكريم، وأن صحابته الكرام كانوا يجتهدون في فهم ما لم ينص عليه، وكانوا يختلفون في ذلك ويتفقون، وأن الثابت أنه ﷺ قد صوب رأي جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وأنه قد دعا لابن عباس بقوله: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**»[1]، وأن ذلك وغيره من الأقوال المأثورة قد اتخذ دليلاً على جواز الاجتهاد في التفسير في غير ما حدده رسول الله ﷺ، فمما يروى عن الإمام علي ـ كرم الله تعالى وجهه ـ حين سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء؟ أنه قال:

---

(١) البخاري في «صحيحه» (١٤٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٨/ ٢٤٧٧).

«ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة، وفهم يؤتاه الرجل في كتابه»[١] مما يؤكد أن فهم المسلمين لدلالة آيات القرآن الحكيم وتدبر معانيها ضرورة تكليفية لكل قادر عليها، مؤهل للقيام بها، وذلك يقرره الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله وهو أحكم القائلين: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وهذه الآية الكريمة ـ وكثير غيرها من الآيات القريبة في المعنى ـ أمر صريح من الله ـ تبارك وتعالى ـ بتدبر آيات القرآن الكريم وفهم معانيها. والقرآن الكريم ينعى على أولئك الذين لا يتدبرونه، ولا يستنبطون معانيه، وهذه آياته تقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٢، ٨٣].

وتقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

وقد ساق الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ الأدلة على جواز فهم القرآن بالرأي، أي: بالاجتهاد، ثم أضاف: «فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً، ومتسعاً بالغاً، والمنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه».

وبناء على ذلك فقد أجاز الغزالي لكل إنسان أن يستنبط من القرآن الكريم بقدر فهمه وحد عقله، ولو أن المبالغة في استخدام تلك الرخصة قد أفرزت نتاجاً لم يكن كله مستساغاً مقبولاً لدى العلماء، ومطابقاً لمقاصد الآيات القرآنية الكريمة في الهداية؛ فقد خرج قوم من المفسرين بالآيات القرآنية ـ إما عن عمد واضح أو عن جهل فاضح ـ إلى ما لا يقبله العقل القويم، ويرضاه الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه والتابعين لهم، ويقبله المنطق اللغوي وأساليب العرب في الأداء ـ حقيقة ومجازاً ـ؛ وذلك لانطلاق الفرق المخالفة من منطلق التعصب لمذاهبهم فحاولوا إخضاع التفاسير لخدمة مِلَلهم ونِحَلِهم؛ مما أدى إلى الموقف المتشدد من القول في القرآن الكريم بالرأي؛ ومن ثم رفض

(١) مسلم في «صحيحه» (٤٥/١٩٧٨).

تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس من معطيات المعارف المكتسبة في حقل العلوم البحتة والتطبيقية.

وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير كتاب الله، ولكنهم حصروا ذلك في مناهج محددة منها: «**المنهج اللغوي**» الذي يهتم بدلالة الألفاظ وطرائق التعبير وأساليبه والدراسات النحوية المختلفة، و«**المنهج البياني**» الذي يحرص على بيان مواطن الجمال في أسلوب القرآن الكريم ودراسة الحس اللغوي في كلماته، و«**المنهج الفقهي**» الذي يركز على استنباط الأحكام الشرعية والاجتهادات الفقهية، كما أن من هؤلاء المفسرين من نادى بالجمع بين تلك المناهج في منهج واحد عرف باسم «**المنهج الموسوعي**» أو «**المنهج الجمعي**»، ومنهم من نادى بتفسير القرآن الكريم حسب الموضوعات التي اشتمل عليها، وذلك بجمع الآيات الواردة في الموضوع الواحد في كل سور القرآن الكريم، واستنباط دلالاتها، استناداً إلى قاعدة أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وقد عرف ذلك باسم: «**المنهج الموضوعي في التفسير**».

مبررات الرافضين للمنهج العلمي في تفسير القرآن الكريم:

انطلاقاً مما سبق ظل المنهج العلمي في التفسير مرفوضاً من بعض المجتهدين، وذلك لأسباب كثيرة منها ما يلي:

١ ـ محاولة بعض اللغويين قصر قضية (الإعجاز) في القرآن الكريم على المجالات التي كان فيها التحدي بما لا يستطيع أحد من بلغاء العرب أن يصل إليه أو يضاهيه، وهو بيان القرآن، ونظمه، وأسلوبه، وفصاحته وبلاغته، وهو ما تحدى به العرب فيما كانوا يجيدونه ويتقنونه.

وبناء على ذلك فإذا كان في القرآن الكريم وجوه من الإعجاز العلمي فالذي ينبغي أن يُفْهَمَ من ذلك أنه في كل وجه من هذه الوجوه يتعذر على البشر أن يصلوا إلى مستوى القرآن الكريم فيها، أو أن يكون في مقدور أسبابهم ووسائلهم أن تبلغ حقيقة ما ذكره القرآن الكريم عنها؛ وذلك لأن ما يقتضيه

المعنى اللغوي للفظة «الإعجاز» هو إثبات عجز الخلق في الوجه الذي تحداهم به، ولكن إذا وصلت العلوم المكتسبة إلى شيء من ذلك فقد سقط عنصر التحدي وبالتالي انتفت المعجزة.

وانطلاقاً من ذلك يضيف هؤلاء اللغويون أن المثلية في قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] هي مثلية البيان والنظم والأسلوب والفصاحة والبلاغة فقط. علماً بأن الواضح من المثلية في التحدي بالقرآن الكريم (كله أو عشر سور من مثله أو حتى بسورة واحدة من مثله) هو التحدي الشامل بالشكل والمضمون، وبالبيان والمحتوى، ومن أوضح جوانب ذلك المحتوى ركائز الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وكلٌّ من الإشارات الكونية والنفسية والتربوية والتاريخية فيه.

٢ ـ إن الإسرائيليات كانت قد نفذت أول ما نفذت إلى التراث الإسلامي عبر محاولة أعداد من السابقين تفسير تلك الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله على أساس مما جاء في سفر «التكوين» من «العهد القديم». وهذا خطأ كبير لأن الله ـ تعالى ـ قد أوكل الناس في أمور الكشف عن حقائق الكون إلى جهودهم المتتالية جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر.. ومن هنا جاءت الإشارات الكونية في القرآن الكريم بصيغة مجملة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني، وتظل تلك المعاني تتسع باستمرار مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية في مجال العلوم المكتسبة وذلك في تكامل لا يعرف التضاد. ومن هنا أيضاً لم يقم رسول الله ﷺ بالتنصيص على المراد من الآيات الكونية في أحاديثه الشريفة التي تناول بها شرح عدد من آيات القرآن الكريم.

ولكن لما كانت النفس البشرية تواقة دوماً إلى التعرف على أسرار هذا الوجود؛ ولما كان الإنسان قد شغل منذ القدم بتساؤلات كثيرة عن الكون، والحياة، وخلق الإنسان وعن غير ذلك من أسرار الوجود فقد تجمع لدى

البشر في ذلك تراث ضخم عبر التاريخ اختلط فيه الحق بالباطل والواقع بالخيال والعلم بالخرافة، وكان أكثر الناس حرصاً على هذا النوع من المعرفة المكتسبة هم رجال الدين في مختلف العصور. والدولة الإسلامية كانت في أول نشأتها محاطة بحضارات عديدة تباينت فيها تلك المعارف وأمثالها، ثم بعد اتساع رقعتها واحتوائها لتلك الحضارات المجاورة، وبعد دخول أمم من مختلف المعتقدات السابقة إلى دين الله، وبعد وصول هذا التراث إلى عدد من علماء المسلمين بعد ترجمته ونقده والإضافة إليه، حاول بعض المفسرين الاستفادة به في شرح الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم فأخطأوا في ذلك؛ لأن العصر لم يكن عصر تطور علمي كالذي نعيشه اليوم؛ ولأن هذا التراث كان أغلبه في أيدي اليهود الذين اشتهروا بتزييف الحقائق، وتزوير التاريخ، وبخداع غيرهم من البشر الذين يفضلون اليهود عليهم ويفصلونهم عنهم تحت مسمى: (الأمميين).

وقد اشتهر اليهود بالتآمر والكيد للإسلام منذ بزوغ فجره، كما تآمروا على رسالات جميع أنبياء الله من قبل، وأن النقل للمعارف التي كانت متاحة في زمانهم من اللغات الأخرى إلى العربية قد تم بواسطة من أسلم ومن لم يسلم منهم، وقد حذّر رسول الله ﷺ من اليهود بقوله: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوه**»[1].

ويفسر ابن خلدون أسباب نقل هذه «الإسرائيليات» إلى كتب التاريخ والتفسير بقوله: «والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب، ولا علم، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية، وإذا تشوقوا إلى معرفة شيء مما تتشوق إليه النفوس البشرية: في أسباب المكونات، وبدء الخليقة، وأسرار الوجود، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم، ويستفيدون منهم، وهم أهل التوراة

(١) أحمد في «مسنده» (٤/ ١٣٦).

من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى. وأهل التوراة الذين كانوا بين العرب يومئذ وهم بادية مثلهم كانوا لا يعرفون من ذلك إلا ما تعرفه العامة من أهل الكتاب، ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعية التي يحتاطون لها...».

٣ ـ إن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية للإنسان، في القضايا التي يعلم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعلمه المحيط عجز الإنسان عن الوصول فيها وحده إلى أية تصورات صحيحة من مثل قضايا **العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات**؛ وهي ركائز الدين، ومن هنا كانت ضرورة إنزال وحي السماء بها، ومن هنا أيضاً كان القرآن الكريم هو كتاب دين الله الذي أوحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله ـ صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين ـ وتعهد الله ـ تعالى ـ بحفظه فحفظ؛ في نفس لغة وحيه «اللغة العربية»، وعلى ذلك فلا بد من تأكيد الحقيقة أن القرآن الكريم ليس كتاب علم من العلوم المكتسبة، بل هو وحي السماء، وأن الإشارات العلمية التي وردت به جاءت في مقام الإرشاد والموعظة بحقيقة الألوهية، والربوبية، والوحدانية، والخلق، والبعث، والحساب، والجزاء، ومخاطبة أهل العلم باللغة التي يفهمونها، لا في مقام البيان العلمي بمفهومه المحدد، وأن تلك الإشارات ـ على كثرتها ـ جاءت في أغلب الأحيان مجملة، وذلك بهدف توجيه الإنسان إلى التفكر والتدبر وإمعان النظر في خلق الله، لا بهدف الإخبار العلمي المباشر.

٤ ـ إن القرآن الكريم ثابت لا يتغير، بينما معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، وأن ما تسمى بحقائق العلم ليست سوى نظريات وفروضاً يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم، وانطلاقاً من هذا الفهم فإنه لا يجوز الرجوع إلى العلوم المكتسبة عند تفسير كتاب الله العزيز؛ لأنه لا يجوز تفسير الثابت بالمتغير.

٥ ـ إن القرآن الكريم هو بيان من الله ـ تعالى ـ، بينما معطيات العلوم المكتسبة لا تعدو أن تكون محاولة بشرية للوصول إلى الحقيقة. ولا يجوز ـ في ظنهم ـ رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر، كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتسبة؛ لأن القرآن الكريم ـ بصفته كلام الله ـ هو حجة على البشر كافة، وعلى العلم وأهله.

٦ ـ إن العلوم المكتسبة تصاغ في أغلب دول العالم اليوم صياغة تنطلق كلها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب ولا تؤمن بالله، وأن كثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية لهم مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله ـ تعالى ـ وبملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وبحياة البرزخ وبالبعث والنشور والحساب والجزاء، وبالحياة الخالدة في الدار الآخرة، إما في الجنة أبداً وإما في النار أبداً.

٧ ـ أن بعض معطيات العلوم المكتسبة قد يتباين مع عدد من الأصول الثابتة في الكتاب والسنة، نظراً لصياغة تلك المكتسبات من منطلقات مادية بحتة منكرة لكل حقائق الغيب أو متجاهلة لها، وأن التفسير العلمي للقرآن الكريم على أساس من هذه المعطيات قد يدفع ببعض المتحمسين إلى التأويل المتكلف الذي لا نحتاج إليه في فهم دلالة النص القرآني.

٨ ـ إن عدداً من المفسرين الذين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحتمله.

٩ ـ إن وصول الإنسان إلى معرفة عدد من حقائق الكون يخرج تلك الحقائق عن مقام التحدي، وعن دائرة المعجزة وبالتالي يخرج الإشارات الكونية في كتاب الله من إطار التحدي لأنها لم تعد أمراً خارقاً للعادة، أو سالماً من المعارضة.

الرد على اعتراضات الرافضين للمنهج العلمي في التفسير:

من الواضح أن حجج المعارضين للمنهج العلمي في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، والتي أوردناها في الفقرات السابقة هي كلها حجج مردودة حجة بحجة كما يلي:

١ ـ إن الذين حاولوا قصر الإعجاز في القرآن الكريم على بيانه ونَظْمه وأسلوبه وفصاحته وبلاغته فقط بدعوى أنه الجانب الذي تحدى به العرب فيما كانوا يجيدونه ويتقنونه نسوا أن التحدي بالقرآن الكريم لم يكن للعرب فقط، بل للجن والإنس، فرادى ومجتمعين عبر التاريخ، وليس جميع الإنس والجن يعرفون اللغة العربية فضلاً عن إجادتها وإتقانها.

وادعاء المعترضين بأن (المثلية) التي جاء بها التحدي بالقرآن الكريم هي مثلية البيان والنظم، فيه إجحاف كبير بفضل القرآن الكريم: لأنه مع إيماننا بإعجاز بيان القرآن الكريم ونظمه إلا أن البيان يبقى إطاراً لمحتوى، والمحتوى أهم من الإطار، والمحتوى الأساسي للقرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تحدى القرآن الكريم كلًّا من الجن والإنس بما أورد من قصص السابقين، وإنباء بالغيب، وخطاب للنفس الإنسانية، وإشارات كونية، واقتصادية، وإدارية، وحفظ على مدى السنين. وذلك لأن القرآن الكريم هو معجزة الرسول الخاتم ﷺ إلى يوم الدين، وأن التحدي به وقع بالقرآن كلِّه وليس فقط ببيانه ونَظْمه.

٢ ـ أنه لا حاجة بنا اليوم إلى «الإسرائيليات» في تفسير الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله؛ لأن الرصيد العلمي في مختلف المعارف قد بلغ اليوم شأواً لم يبلغه من قبل، وإذا كان من استخدم «الإسرائيليات» في تفسيره من الأوائل قد أخطأ التفسير، فإن من يستخدم حقائق العلم الثابتة في شرح تلك الآيات اليوم لا بد وأن يصل إلى فهم لها لم يكن من السهل الوصول إليه من قبل، وأن يجد في ذلك من السبق العلمي في القرآن الكريم، صورة من

صور الإعجاز فيه لم يجدها السابقون، وذلك تأكيداً لوصف رسول الله ﷺ للقرآن بأنه: «**لا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد**»[١].

٣ - أنه لا تعارض البتة بين كون القرآن الكريم كتاب هداية ربانية، وإرشادات إلٰهية، ودستور عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملات، وكتاب تشريع سماوي يشمل نظاماً كاملاً للحياة، وبين احتوائه على عدد من الإشارات العلمية الدقيقة التي وردت في مقام الاستدلال على عظمة الخالق - سبحانه وتعالى - وقدرته في إبداعه للخلق، وعلى إفناء ما قد خلق، وإعادة كل ذلك من جديد. وهذه الإشارات الكونية مفيدة أيضاً في الاستدلال على وحدانية الخالق المطلقة فوق جميع خلقه لأنه ﷻ خلق كل شيء في الوجود (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان) في زوجية واضحة حتى يبقى وحده متفرداً بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. وذلك لأن هذه الإشارات في القرآن الكريم تبقى بياناً من الله - خالق الكون ومبدع الوجود - فلا بد وأن تكون حقاً مطلقاً؛ لأنه ليس هناك من هو أدرى بالخليقة من الخالق ﷻ، وتبقى هذه الإشارات الكونية دعوة للإنسان في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه إلى دين الله الحق باللغة الوحيدة التي يفهمونها، وهي لغة العلم.

ولو أن المسلمين وعوا هذه الحقيقة منذ القدم لكان لهم في مجال الدراسات الكونية سبق ملحوظ وثبات غير ملحوق، فنحن ندرك اليوم - في ضوء ما تجمع لنا من معارف في مجال دراسات العلوم البحتة والتطبيقية - أن الإشارات الكونية في كتاب الله تتسم بالدقة المتناهية في التعبير، وبالشمول والإحاطة في المعنى، وبالاطراد والثبات في الدلالة، وبالسبق لكثير من الكشوف العلمية بالمئات من السنين، وفي ذلك شهادة قاطعة - لا يستطيع إنكارها إلا جاحد - بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية بل هو كلام الله الخالق.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن (الحديث: ٢٩٠٦).

أما القول بأن تلك الإشارات قد تم سردها بصورة مجملة فإنها بحق إحدى صور الإعجاز العلمي والبياني في القرآن الكريم؛ وذلك لأن كل إشارة علمية وردت فيه قد صيغت صياغة فيها من إعجاز الإيجاز، والدقة في التعبير، والإحكام في الدلالة، والشمول في المعنى ما يُمَكِّن الناس ـ على اختلاف ثقافاتهم، وتباين مستويات إدراكهم، وتتابع أجيالهم وأزمانهم ـ أن يدركوا لها من المعاني ما يتناسب وهذه الخلفيات كلها، بحيث تبقى المعاني المستخلصة من الآية الواحدة يكمل بعضها بعضاً في تناسق عجيب، وتكامل أعجب؛ لأنه تكامل لا يعرف التضاد. وهذا عندي من أروع صور الإعجاز في كتاب الله. فالإجمال في تلك الإشارات مع وضوح الحقيقة العلمية للأجيال المتلاحقة ـ كل على قدر حظه من المعرفة بالكون وعلومه ـ هو بالقطع أمر فوق طاقة البشر، وصورة من صور الإعجاز لم تتحقق ولا يمكن أن تتحقق لغير كلام الله الخالق.

ومن هنا كان فهم الناس للإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء ما يتجمع لديهم من معارف، هو فهم يزداد اتساعاً وعمقاً جيلاً بعد جيل، وهذا في حد ذاته شهادة للقرآن الكريم بأنه لا تنتهي عجائبه ولا يبلى على كثرة الرد، كما وصفه المصطفى ﷺ. وقد أدرك نفر من السابقين ذلك وفي مقدمتهم **الإمام الزركشي** الذي كتب في كتابه «**البرهان في علوم القرآن**» ما نصه: «وما من برهان ودلالة وتقسيم، وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله ـ تعالى ـ قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين: الأول: بسبب ما قاله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤]. والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون. وكذلك أخرج ـ تعالى ـ مخاطباته في محاجة خلقه من أجل صورة تشتمل على أدق دقيق لتفهم العامة من

جليلها ما يقنعهم الحجة، وتفهم الخواص من أنبائها ما يوفي على ما أدركه الخطباء...» ثم يضيف: «ومن ثم كان على كل من أصاب حظاً في العلم أوفر أن يكون نصيبه من علم القرآن أكثر؛ لأن عقله حينئذ يكون قد استنار بأضواء العلم، وهؤلاء هم الذين اهتم القرآن بمناداتهم كلما ذكر حجة على الربوبية والوحدانية، وأضاف إليهم: أولو الألباب، والسامعون، والمفكرون، والمتذكرون، تنبيهاً إلى أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها».

من هنا كان واجب المتخصصين من المسلمين في كل عصر وفي كل جيل أن ينفر منهم من يستطيع أن يجمع إلى حقل تخصصه إلماماً بحد أدنى من علوم اللغة العربية وآدابها، ومن الحديث وعلومه، والفقه وأصوله، وعلم الكلام وقواعده، مع إحاطة بأسباب النزول، وبالمأثور في التفسير، وباجتهاد السابقين من أئمة المفسرين، ثم يعود هؤلاء إلى دراسة الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله ـ كل فيما يخصه ـ محاولين فهمها في ضوء حقائق العلم وكشوفه، وقواعد المنطق وأصوله حتى يدركوا ما يستطيعون من فهم لكتاب الله فتتحقق نبوءة المصطفى ﷺ في وصفه لهذا الكتاب العزيز بأنه: «**لا تنقضي عجائبه**»[1].

٤ ـ أن القول بعدم جواز تفسير الثابت بالمتغير قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى هذا الفهم بالناس عن واقعهم في كل عصر. وثبات القرآن الكريم ـ وهو من السمات البارزة له ـ لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من حقائق العلوم الكونية، حتى ولو كان ذلك يتسع من عصر إلى آخر بطريقة مطردة، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعة تراكمية، ولا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وتباين العصور، تقدماً واضمحلالاً. وهذه الطبيعة

(١) سبق تخريجه ص ٩٥.

التراكمية للمعرفة الإنسانية المكتسبة تجعل الأمم اللاحقة أكثر علماً في مجال الكونيات ـ بصفة عامة ـ من الأمم السابقة، إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور.

من هنا كانت معطيات العلوم الكونية ـ بصفة خاصة ـ، والمعارف المكتسبة كلها ـ بصفة عامة ـ دائمة التغير والتطور، بينما كلمات وحروف القرآن الكريم ثابتة لا تتغير، وهذا وحده من أعظم شواهد الإعجاز في كتاب الله.

وعلى الرغم من ثبات اللفظ القرآني، وتطور الفهم البشري لدلالاته ـ مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل ـ فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع بعض في اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله ـ تعالى ـ. ويظل اللفظ القرآني ثابتاً، وتتوسع دائرة فهم الناس له عصراً بعد عصر.. وفي ذلك شهادة للقرآن الكريم بأنه يغاير كلام البشر كافة، وأنه ـ بالقطع ـ بيان من الله ـ تعالى ـ. ولذلك فإننا نجد هذا الكتاب العزيز يحض الناس حضًّا على تدبر آياته، والعكوف على فهم دلالاتها، ويتحدى أهل الكفر والشرك والإلحاد أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض على توالي العصور، وكثرة النظر فيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]؛ وصدق الله العظيم إذ يكرر التساؤل التقريعي في سورة «الرحمٰن» إحدى وثلاثين مرة: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣، ١٦، ١٨، ٢١، ٢٣، ٢٥، ٢٨، ٣٠، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، ٤٠، ٤٢، ٤٥، ٤٧، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٣، ٦٥، ٦٧، ٦٩، ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٧]، ويؤكد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ ضرورة تدبر القرآن الكريم، وأنه تعالى قد جعله في متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات في سورة القمر، حيث يصدع التنزيل بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢].

والذكر هنا ـ كما يجمع المفسرون ـ يشمل التلاوة والتدبر معاً، ويشير إلى استمرار تلك العملية مع توالي العصور وتجدد الأزمان، ومن هنا يبقى النص القرآني ثابتاً، ويتجدد فهم الناس له كلما اتسعت دائرة معارفهم ونمت حصيلتهم العلمية، وذلك ـ بالقطع ـ فيما لم يرد في شرحه شيء من المأثور الموثق. وليس في ذلك مقابلة بين كلام الله وكلام الناس كما يدعي البعض، ولكنه المحاولة الجادة لفهم كلام الله، وهو ـ تعالى ـ الذي أنزله للبشر؛ لكي يفهموه، ويتعظوا بدروسه. وفهم آيات القرآن الكريم ـ في الوقت نفسه بمعان تتسع مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية باستمرار، وفي تكامل لا يعرف التضاد ـ هو صورة من صور الإعجاز في كتاب الله، لا ينكرها إلا جاحد.

٥ ـ والقول «بأن ما يسمى بحقائق العلم ليس إلا نظريات وفروضاً، يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما يبطل في الغد ما هو سائد اليوم» فهو أيضاً قول ساذج؛ لأن هناك فروقاً واضحة بين كل من الفروض والنظريات من جهة، والحقائق والقواعد والقوانين من جهة أخرى، وهي مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات، وينتهي بالقواعد والقوانين والحقائق. والفروض هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، أما الحقائق الكونية فهي ما يثبت ثبوتاً قاطعاً في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة، وهي جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها كما علمنا المصطفى ﷺ. أما القواعد والقوانين العلمية فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية في الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهي كذلك جزء من الحكمة التي هي ضالة المؤمن، كما أخبر الصادق المصدوق ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ[1]. والحقيقة العلمية لا تبطل مع الزمن أبداً، ولكنها قد تتسع وتنمو بنماء الجهود المتتابعة، ومن هنا كانت الطبيعة التراكمية للمعرفة

(١) العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٤٣٥).

المكتبة التي تتسع جيلاً بعد جيل، وهذا لا ينتقص من صدق الملاحظات العلمية التي ترقى إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون.

٦ ـ أما القول «بأنه لا يجوز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر كما لا يجوز الانتصار لكتاب الله بمعطيات العلوم المكتبة» فهو كذلك كلام بعيد عن الحق، فقد حرص كثير من علماء المسلمين على ألا يتم تفسير الإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة والقوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تخديمهما في فهم ذلك، إلا في حالة الآيات القرآنية الكريمة، المتعلقة بالقضايا التي لا تخضع خضوعاً مباشراً لحس الإنسان وإدراكه من **مثل قضايا الخلق بأبعاده الثلاثة: خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، وفي قضايا الإفناء والبعث.** وحتى هذا الموقف نعتبره تحفظاً مبالغاً فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية، ولا يجدون حرجاً في ذلك العمل الذي يقومون به في غيبة نص ثابت مأثور، فإننا نرى أنه لا حرج على الإطلاق في فهم الإشارات الكونية الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة؛ وذلك لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً خالصاً ـ بكل ما للبشر من صفات القصور، والنقص، ومحدودية القدرة ـ، ثم إن العلماء التجريبيين قد يجمعون على نظرية ما، لها من الشواهد ما يؤيدها، وإن لم ترق بعد إلى مرتبة الحقيقة أو القاعدة أو القانون، ولا يكون أمام العلماء من مخرج للوصول بها إلى ذلك المستوى أبداً، فمن أمور الكون العديدة ما لا سبيل للعلماء التجريبيين من الوصول فيها إلى حقيقة أبداً، ولكن قد يتجمع لديهم من الشواهد ما يمكن أن يعين على بلورة نظرية من النظريات، ويبقى العلم التجريبي مسلماً بأنه لا يستطيع أن يتعدى تلك المرحلة في ذلك المجال بعينه أبداً.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها النظريات المفسرة لكل من أصل الكون وأصل الحياة وأصل الإنسان، وقد مرت بمراحل متعددة من الفروض العلمية حتى وصلت اليوم إلى عدد من النظريات المقبولة، ولا يتخيل العلماء أنهم سيصلون في يوم من الأيام إلى أكثر من تفضيل لنظرية على أخرى، أو تطوير لنظرية عن أخرى، أو وضع لنظرية جديدة، دون الادعاء بالوصول إلى حقيقة راسخة أو قانون قطعي، أو قاعدة ثابتة لذلك أبداً. فتكثر النظريات المفسرة لظواهر محددة، وتختلف باختلاف خلفية واضعيها، ويبقى للمسلم نور من الله الخالق في آية قرآنية كريمة، أو حديث نبوي صحيح يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في حديث رسول الله ﷺ، وإن لم يستطع العلم المكتسب أن يقوم بذلك. فهذه مجالات إذا دخلها الإنسان بغير هداية ربانية فإنه يضل فيها ضلالاً بعيداً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

فعلى الرغم من أن العلماء التجريبيين يستقرئون حقائق الكون بالمشاهدة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج في عمليات قابلة للتكرار والإعادة؛ إلا أن من أمور الكون ما لا يمكن إخضاعه لذلك المنهج. وعلى ذلك فإن هناك قضايا كثيرة لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبداً بغير هداية ربانية. ولولا الثبات في سنن الله التي تحكم الكون وما فيه ما تمكن الإنسان من اكتشاف تلك السنن أبداً.. ولا يظن عاقل أن البشر مطالبون بما هو فوق طاقاتهم، خاصة في فهم كتاب الله الذي أنزل لهم، ويُسِّر لتذكرهم؛ لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. ففي الوقت الذي يقرر القرآن الكريم أن الله لم يُشْهِدْ أياً من الجن والإنس خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم، نجده في آيات أخر يأمرهم بالنظر في كيفية بداية الخلق، وهي من أصعب قضايا العلوم الكونية قاطبة؛ إذ يقول ـ عز من قائل ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ

﴿ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩، ٢٠].

وفي ذلك ما يشير إلى أن بالأرض سجلاً حافلاً بالحقائق التي يمكن أن يُسْتَدَلَّ منها على كيفية بدء الخلق الأول، وعلى إمكانية النشأة الآخرة، والأمر في الآية من الله ـ تعالى ـ إلى رسوله الكريم ليدعو الناس كافة إلى السير في الأرض، واستخلاص العبرة من فهم كيفية الخلق الأول، وهي قضية تقع من العلوم الكونية في الصميم إن لم تكن تشكل أصعب قضية علمية عالجها الإنسان، وإن لم يستطيع تجاوز مرحلة التنظير فيها.

وقضايا الخلق وإفنائه وإعادة خلقه لها في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي سنة رسوله ﷺ من الإشارات اللطيفة ما يُمَكِّن الإنسان المسلم من تفضيل نظرية من النظريات والارتقاء بها إلى مقام الحقيقة لمجرد ورود ذكر لها في كتاب الله ـ تعالى ـ أو في سنة رسوله ﷺ، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعلم وليس العكس.

ولما كانت العلوم المكتسبة لم تصل بعد إلى الحقيقة في كثير من الأمور فإني أرى ضرورة فهم الإشارات العلمية الواردة بالقرآن الكريم على أساس من الحقائق العلمية الثابتة أولاً، فإن لم تتوافر فبالنظرية السائدة المقبولة، حتى لو أدى التطور العلمي في المستقبل إلى تغيير تلك النظرية، أو تطويرها أو تعديلها؛ وذلك لأن التفسير ـ كما سبق وأن أشرت ـ يبقى اجتهاداً بشرياً خالصاً من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، إن أصاب فيه المرء فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ويبقى هذا الاجتهاد قابلاً للزيادة والنقصان، وللنقد والتعديل والتبديل باستمرار.

وإن في كون القرآن الكريم بياناً من الله ـ تعالى ـ إلى الناس كافة، يفرض على المتخصصين من أبناء المسلمين أن يفهموه ـ كل في حقل تخصصه ـ

على ضوء ما تجمع لكل منهم من معارف، وذلك بتوظيف مناهج الاستقراء الدقيقة؛ فالقرآن الكريم نزل للناس ليفهموه وليتدبروا آياته. ثم إن تفسير آيات الكونيات على ضوء من معطيات العلوم التجريبية لا يشكل احتجاجاً على القرآن الكريم بالمعارف المكتسبة، ولا انتصاراً له بها فالقرآن الكريم هو - بالقطع - فوق ذلك كله، ولأن التفسير على أساس من المعطيات العلمية الحديثة يبقى محاولة بشرية للفهم في إطار لم يكن متوفراً للناس من قبل. ولا يمكن أن تكون محاولات البشر لفهم القرآن الكريم حجة على كتاب الله - سواء أصابت أم أخطأت تلك المحاولات - وإلا لما حفل ذلك الكتاب الكريم بهذا الحشد الهائل من الآيات التي تحض على استخدام كل الحواس البشرية للنظر في مختلف جنبات الكون بمنهج علمي استقرائي دقيق؛ وذلك لأن الله - تعالى - قد جعل السنن الكونية على قدر من الثبات والاطراد الذي يمكن حواس الإنسان المتأمل لها من إدراك أسرارها - على الرغم من حدود قدرات تلك الحواس -، وربما كان هذا هو المقصود من آيات التسخير التي يزخر بها القرآن الكريم، ويمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - وهو صاحب الفضل والمنة، بهذا التسخير الذي هو من أعظم نعم الله على عباده.

ومن أروع ما يدركه الإنسان المتأمل في الكون كثرة الأدلة المادية الملموسة على كل حَدَثٍ وقع في الكون، وهي أدلة مدونة في صفحة السماء، وفي صخور الأرض بصورة يمكن لحواس الإنسان ولعقله إدراكها لو اتبع المنهج العلمي الاستقرائي الصحيح، فما من انفجار حدث في الكون إلا وهو مدون، وما من نجم توهج أو خمد إلا وله أثر، وما من هزة أرضية أو ثورة بركانية أو حركة بانية للجبال إلا وهي مسجلة في صخور القشرة الأرضية، وما من تغير في تركيب الغلاف الغازي أو المائي للأرض إلا وهو مدون في صخورها، وما من تقدم للبحار أو انحسار لها، ولا تغير في المناخ إلا وهو مدون كذلك في صخور الأرض، وما من هبوط نيزك من النيازك على الأرض إلا وهو مسجل في صخورها.

ومن هنا فإن الدعوة القرآنية للتأمل في الكون واستخلاص سنن الله فيه، وتوظيف تلك السنن في عمارة الأرض والقيام بواجب الاستخلاف فيها هي دعوة للناس في كل زمان ومكان، وهي دعوة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتعطل أبداً، انطلاقاً من الحقيقة الواقعة أنه مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية فإن القرآن الكريم يبقى مهيمناً عليها، ومحيطاً بها؛ لأنه كلام الله الخالق الذي أبدع هذا الكون بعلمه وقدرته وحكمته، والذي هو أدرى بصنعته من كل من هم سواه.

وعلى ذلك فإن مقابلة كلام الله بمحاولة البشر لتفسيره، وإثبات جوانب الإعجاز فيه، لا تنتقص من جلال الربوبية الذي يتلألأ بين كلمات هذا البيان الرباني الخالص، وإنما تزيد المؤمنين ثباتاً على إيمانهم،وتشرح صدور الباحثين عن الحق وتهديهم إليه وتقيم الحجة على الجاحدين من الكفار والمشركين. وإذا أخطأ المفسر في فهم دلالة آية من آيات القرآن الكريم فإن هذا الخطأ يعود على المفسر نفسه ولا ينسحب على جلال كلام الله أبداً. والذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، وكذلك الذين فسروا بالتاريخ. فليحاول العلماء التجريبيون تفسير الآيات الكونية بما تجمع لديهم من معارف؛ لأن تلك الآيات لا يمكن فهم دلالاتها فهماً كاملاً، ولا استقراء جوانب الإعجاز فيها في حدود اللغة وحدها ـ على أهمية ذلك وضرورته ـ بل لا بد من توظيف المعارف العلمية المتاحة من أجل تحقيق ذلك.

٦ ـ إن الاحتجاج بأن العلوم التجريبية ـ في ظل الحضارة المادية المعاصرة ـ تنطلق في معظمها من منطلقات مادية بحتة، تنكر أو تتجاهل الغيب، ولا تؤمن بالله، وأن للكثيرين من المشتغلين بالعلوم الكونية مواقف عدائية واضحة من قضية الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فمردُّ ذلك كله بعيد عن طبيعة العلوم الكونية، وإنما يرجع إلى المواقف الخاطئة التي أفرزتها الحضارة المادية المعاصرة، والتي تحاول فرضها على كل استنتاج علمي، وعلى كل رؤية شاملة للكون والحياة في ظل قفزات هائلة

في مجال العلوم الكونية البحتة منها والتطبيقية، وقد تخلف المسلمون مؤخراً في كثير من مجالاتها مما أدى إلى انتقال القيادة الفكرية في هذه المجالات على وجه الخصوص إلى أمم سبق للعلماء فيها أن عانوا معاناة شديدة من تسلط الكنيسة عليهم، واضطهادها لهم، ورفضها للمنهج العلمي ولكل معطياته، ووقوفها حجر عثرة في وجه أي تقدم علمي، كما حدث في أوروبا في أوائل عصر النهضة. وظل الحال كذلك حتى انتصرت حقائق العلم فانطلق العلماء الغربيون من منطلق العداوة للكنيسة أولاً ثم لقضية الإيمان بالتبعية، وداروا بالعلوم الكونية ومعطياتها في إطارها المادي فقط، وبرعوا في ذلك براعة ملحوظة، ولكنهم ضلوا السبيل وتنكبوه حينما حبسوا أنفسهم في إطار المادة وحدها، ولم يتمكنوا من إدراك ما فوقها، وحرموا أنفسهم من مجرد التفكير فيه، فأصبحت الغالبية العظمى من العلوم تكتب من مفهوم مادي صرف. وانتقلت عدوى ذلك إلى عالمنا المسلم أثناء مرحلة الدهث وراء اللحاق بالركب التي نعيشها منذ بدايات القرن العشرين، وما صاحب ذلك من مركبات الشعور بالنقص، مع دسّ الأعداء، وانبهار البلهاء بما حققته الحضارة المادية المعاصرة من انتصارات في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، وما وصلت إليه من أسباب القوة المادية والغلبة العسكرية، وما حملته معها حركة الترجمة من غث وسمين، فأصبحت العلوم تكتب اليوم في عالمنا المعاصر من نفس المنطلق؛ لأنها عادة ما تدرس وتكتب وتنشر بلغات أجنبية على نفس النمط الذي أرست قواعده الحضارة المادية المعاصرة. وحتى ما ينشر منها باللغة العربية، وبغيرها من اللغات المحلية في مختلف دول العالم الإسلامي المعاصر، لا يكاد يخرج في مجموعه عن كونه ترجمة مباشرة أو غير مباشرة للفكر الغريب الوافد، بكل ما فيه من تعارض واضح أحياناً مع نصوص الدين. والخطأ ليس خطأ المعطيات الكلية للعلوم المكتسبة، ولكنه يتجسد في صياغتها بأيد كافرة أو مشركة، ضالة عن الحق وركائزه، وعن الدين الصحيح وأصوله.

وهنا تقتضي الأمانة إثبات أن ذلك الموقف غريب على العلم وحقائقه، ومن هنا أيضاً **كان من واجب المسلمين إعادة التأصيل الإسلامي للمعارف المكتسبة كلها، أي إعادة كتابة العلوم وغيرها من المعارف المكتسبة من منطلق إسلامي صحيح**، خاصة وأن المعطيات الكلية للعلوم ـ بعد وصولها إلى قدر من التكامل في هذا العصر ـ أصبحت من أقوى الأدلة على وجود الله، وعلى تفرده بالألوهية والربوبية والوحدانية فوق جميع خلقه، ومن أنصع الشواهد على حقيقة الخلق، وحتمية البعث، وضرورة الحساب. وأن العلوم الكونية كانت ولا تزال النافذة الرئيسة التي تتصل منها الحضارة المعاصرة بالفطرة الربانية، وأن المنهج العلمي ونجاحه في الكشف عن عدد من حقائق هذا الكون متوقف على اتساق تلك الفطرة واتصاف سننها بالاطراد والثبات.

٧ ـ كذلك فإن القول «بأن المعطيات الكلية للعلوم التجريبية ـ كما تصاغ في الحضارة المادية المعاصرة ـ قد تتباين مع الأصول الإسلامية الثابتة»، هو قول على إطلاقه غير صحيح؛ لأنه إذا جاز ذلك في بعض الاستنتاجات الجزئية الخاطئة، أو في بعض الأوقات (كما كان الحال في مطلع القرن العشرين. والمعرفة بالكون جزئية متناثرة، ساذجة بسيطة، أو في الجزء المتوسط منه عندما أدت المبالغة في التخصص إلى حصر العلماء في دوائر ضيقة للغاية حجبت عنهم الرؤية الكلية لمعطيات العلوم) فإنه لا يجوز اليوم، وقد بلغت المعارف بأشياء هذا الكون حداً لم تبلغه البشرية من قبل، وأصبحت الاستنتاجات الكلية لتلك المعارف تؤكد ضرورة الإيمان بالخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء، وضرورة التسليم بالغيب وبالوحي وبالحشر وبالبعث وبالحساب.

ومن المعطيات الكلية للعلوم الكونية المعاصرة ما يمكن إيجازه فيما يلي:

١ ـ إن هذا الكون الذي نحيا فيه متناه في أبعاده، مذهل في دقة بنائه، وإحكام ترابطه وانتظام حركاته.

٢ ـ إن هذا الكون مبني على نفس النظام من أدق دقائقه إلى أكبر وحداته.

٣ ـ إن هذا الكون دائم الاتساع إلى نهاية لا يستطيع العلم المكتسب إدراكها، وإن أمكنه قياس معدلات هذا التوسع.

٤ ـ إن هذا الكون ـ على قدمه ـ مستحدث مخلوق، كانت له في الماضي السحيق بداية يحاول العلم التجريبي قياسها، ووصل فيها إلى دلالات تكاد تكون ثابتة إذا استبعدنا الأخطاء التجريبية.

٥ ـ إن هذا الكون عارض، فلا بد من أن ستكون له في يوم من الأيام نهاية تشير إليها كل الظواهر الكونية من حولنا، وإن عجزنا عن تحديد وقتها الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

٦ ـ إن هذا الكون المادي لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه، ولا يمكن لأي من مكوناته المادية أن تكون قد أوجدته.

٧ ـ إن هذا الكون المتناهي الأبعاد، الدائم الاتساع، المحكم البناء، الدقيق الحركة والنظام، والذي يدور كل ما فيه في مدارات محددة ويجري بسرعات مذهلة متفاوتة وثابتة، لا يمكن أن يكون قد وجد بمحض المصادفة.

هذه المعطيات الكلية للعلوم تفضي إلى الحقائق المنطقية التالية:

١ ـ إذا كان هذا الكون الحادث لا يمكن أن يكون قد أوجد نفسه بنفسه أو أن يكون قد وجد بمحض المصادفة، فلا بد له من موجد عظيم له من العلم والقدرة والحكمة وغير ذلك من صفات الكمال والتنزيه ما لا يتوفر لشيء من خلقه، بل لا مهرب من الاعتراف بأن يكون لهذا الخالق العظيم من الصفات ما يغاير صفات المخلوقات جميعاً فلا تحده حدود المكان والزمان، ولا قوالب المادة والطاقة ولا بد من أن تكون مرجعية الكون كله إليه، وبالتالي فلا بد من أن يكون خارج حدود الكون، وأن يرجع أمر الكون كله إليه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]،

ولا ينسحب عليه ما يحكم خلقه من سنن وقوانين؛ لأنه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٢ ـ وهذا الخالق العظيم الذي أوجد الكون بما فيه ومن فيه هو وحده الذي يملك القدرة على إزالته وإفنائه ثم إعادة خلقه وقتما شاء وكيفما شاء، وفي ذلك يقول ﷻ:

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ويقول عز من قائل: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٣ ـ كذلك فإن الوحدة في هذا الكون تشير إلى وحدانية هذا الخالق العظيم: وحدة بناء كل من الذرة، والخلية الحية، والمجموعة الشمسية، والمجرة، وغيرها من تجمعات أجرام السماء، ووحدة تآصل العناصر كلها وردها إلى أبسطها وهو غاز الأيدروجين، ووحدة تواصل كل صور الطاقة، وتواصل المادة والطاقة، وتواصل كل من المكان والزمان؛ هذا التواصل وتلك الوحدة التي يميزها التنوع في أزواج، وتلك الزوجية التي تنتظم كل صور المخلوقات من الجمادات والأحياء ـ من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان ـ تشهد بتفرد الخالق البارئ المصور بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، واستعلاء هذا الخالق الواحد الأحد الفرد الصمد فوق خلقه بمقام الألوهية الذي لا يشاركه فيه أحد، ولا ينازعه على سلطانه منازع ولا يشبهه من خلقه شيء.

٤ ـ وبالإضافة إلى ذلك فإن العلوم التجريبية في تعاملها مع المدرك المحسوس فقط، قد استطاعت أن تتوصل إلى أن بالكون غيباً قد لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه، ولولا ذلك الغيب ما استمرت تلك العلوم في التطور والنماء؛ لأن أكبر الاكتشافات العلمية قد تم نتيجة للبحث الدءوب عن هذا الغيب المرحلي، أما الغيوب المطلقة فقد استأثر بها علم الله.

٥ ـ كذلك تؤكد العلوم التجريبية أن بالأحياء سراً لا نعرف كنهه؛ لأننا نعلم مكونات الخلية الحية، والتركيب المادي لجسد الإنسان، ومع ذلك لم يستطع هذا العلم أن يصنع لنا خلية حية واحدة، أو أن يوجد لنا إنساناً عن غير الطريق الفطري لإيجاده. وحتى الاستنساخ الذي هو عبث بالخلق لا يخرج عن ذلك في شيء.

٦ ـ إن النظر في أي من زوايا الكون ليؤكد حاجته ـ بمن فيه وما فيه ـ إلى رعاية خالقه العظيم في كل لحظة من لحظات وجوده.

٧ ـ إن العلوم الكونية إذ تقدر أن الكون والإنسان في شكليهما الحاليين ليسا أبديين، فإنها ـ وعلى غير قصد منها ـ لتؤكد حقيقة الآخرة، بل حتميتها. والموت يتراءى في مختلف جنبات الكون في كل لحظة من لحظات وجوده شاملاً الإنسان والحيوان والنبات والجماد بما في ذلك من أجرام السماء على تباين هيئاتها. وتكفي في ذلك الإشارة إلى ما أثبتته الدراسة من أن الشمس تفقد من كتلتها بالإشعاع على هيئة طاقة ما يقدر بحوالي ٤,٦ مليون طن من المادة في كل ثانية، وأنها إذ تستمر في ذلك فلا بد من أن يأتي الوقت الذي تخبو فيه جذوتها، وينطفئ أوارها، وتنتهي الحياة على الأرض قبل ذلك؛ لاعتماد الأرض في ممارسة أنشطتها الحيوية على القدر المقنن الذي يصلها من أشعة الشمس، وأن الطاقة تنتقل من الأجسام الحارة إلى الأجسام الأقل حرارة بطريقة مستمرة في محاولة لتساوي درجات حرارة الأجرام المختلفة في الكون، ولابد أن تنتهي بذلك أو قبله كل صور الحياة المعروفة لنا. وليس معنى ذلك أنه يمكن معرفة متى تكون نهاية هذا الوجود؛ لأن الآخرة قرار إلٰهي لا يرتبط بسنن الدنيا، وإن أبقى الله ـ تعالى ـ لنا في الدنيا من الظواهر والسنن ما يؤكد إمكانية وقوع الآخرة، بل حتميتها انصياعاً للأمر الإلٰهي ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

والقرآن الكريم يؤكد لنا فيه ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فجائية وقوع الآخرة بقوله

العزيز مخاطباً خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمداً ﷺ فيقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن الإنسان الذي يحوي جسده ـ في المتوسط ـ ألف مليون مليون خلية يفقد منها في كل ثانية ما يقدر بحوالي ١٢٥ مليون خلية، تموت ويتخلق غيرها بحيث تتبدل جميع خلايا جسد الفرد من بني البشر مرة كل عشر سنوات تقريباً، فيما عدا الخلايا العصبية التي إذا ماتت لا تتجدد.

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى أن انتقال الإلكترون من مدار إلى آخر حول نواة الذرة يتم بسرعة مذهلة دفعت بعدد من العلماء المعاصرين إلى الاعتقاد بأنه فناء في مدار، وخلق جديد في مدار آخر.

كما تكفي الإشارة إلى ظاهرة اتساع الكون عن طريق تباعد المجرات عن بعضها البعض بسرعات مذهلة تقترب من ثلاثة أرباع سرعة الضوء المقدر بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية، وتخلق المادة في المسافات الجديدة الناتجة عن هذا التباعد المستمر إلى نهاية لا يعلمها إلا الله تعالى، وبطريقة لا يعلمها إلا هو ـ ﷻ ـ. وتباطؤ هذا التباعد مع الزمن يشير إلى حتمية تغلب الجاذبية على عملية الدفع إلى الخارج؛ مما يؤدي إلى إعادة جمع مادة الكون ومختلف صور الطاقة فيه وكل المكان والزمان في جرم واحد ذي كثافة بالغة يشبه الجرم الأول الذي بدأ منه خلق الكون، وهذا سوف يؤدي إلى انفجاره على هيئة شبيهة بالانفجار الأول الذي تم به خلق الكون فيتحول هذا الجرم الثاني إلى غلالة من دخان كما تحول الجرم الأول، وتتخلق من هذا الدخان أرض غير الأرض الحالية وسمٰوات غير السمٰوات المحيطة بها كما وعد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بقوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا

فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وتكفي في ذلك أيضاً الإشارة إلى فناء مختلف صور المادة والطاقة في داخل الثقوب السود إلى نهاية لا يعلمها إلا الله تعالى. كما يكفي أن نشير إلى حقيقة أن الذرات في جميع الأحماض الأمينية والجزيئات البروتينية تترتب ترتيباً يسارياً حول ذرة الكربون، في أجساد كافة الكائنات الحية على اختلاف مراتبها، فإذا ما مات الكائن الحي أعادت تلك الذرات ترتيب نفسها ترتيباً يمينياً بمعدلات ثابتة محددة يمكن بواسطتها تحديد لحظة وفاة الكائن الحي إذا بقيت من جسده بقية بعد مماته. ويتعجب العلماء من القدرة التي مكنت الذرات من تلك الحركات المنضبطة بعد وفاة صاحبها وتحلل جسده!!

فهل يمكن لعاقل بعد ذلك أن يتصور أن العلوم الكونية ومعطياتها ـ في أزهى عصور ازدهارها ـ تتصادم مع قضية الإيمان بالله؟ وهذه هي معطياتها الكلية، وهي في جملتها تكاد تتطابق مع تعاليم السماء، **وفي ذلك كتب المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ/ محمد فريد وجدي ـ يرحمه الله ـ في خاتمة كتابه المعنون «المستقبل للإسلام»** ما نصه: «إن كل خطوة يخطوها البشر في سبيل الرقي العلمي، هي تقرب إلى ديننا الفطري، حتى ينتهى الأمر إلى الإقرار الإجماعي بأنه الدين الحق». ثم يضيف: «نعم إن العالم بفضل تحرره من الوراثات والتقاليد وإمعانه في النقد والتمحيص، يتمشى على غير قصد منه نحو الإسلام، بخطوات متزنة ثابتة، لا توجد قوة في الأرض ترده عنه إلا إذا انحل عصام المدنية، وارتكست الجماعات الإنسانية عن وجهتها العلمية».

وقد بدأت بوادر هذا التحول الفكري تظهر جلية اليوم في مختلف جنبات الأرض، بإقبال أعداد كبيرة من العلماء والمتخصصين وكبار المثقفين والمفكرين على الإسلام، إقبالاً لم تعرف له الإنسانية مثيلاً من قبل، وأعداد

هؤلاء العلماء الذين توصلوا إلى الإيمان بالله عن طريق النظر المباشر في الكون، واستدلوا على صدق خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بالوقوف على عدد من الإشارات العلمية البارقة الصادقة في كتاب الله تعالى، أو في سنة رسوله ﷺ هم في تزايد مستمر، وهذا واحد منهم هو «موريس بوكاي» الطبيب والباحث الفرنسي يسجل في كتابه «الإنجيل والقرآن والعلم» ما نصه: «لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير ـ إلى هذا الحد ـ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة، وذلك في نص دوِّن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

٨ ـ إن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله ـ تعالى ـ الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ بحفظ الله، بنفس اللغة التي أوحي بها ـ اللغة العربية ـ، بدقائق حروفه وكلماته وآياته وسوره، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية التي تتردى فيها اليوم بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل، وتضاؤل روح الإيمان بالله، وانعدام الخشية من عذابه في نفوس العدد الأكبر من الناس، خاصة في أكثر المجتمعات البشرية المعاصرة أخذاً بأسباب التقدم العلمي والتقني، فأغلب المجتمعات البشرية في الدول غير المسلمة تعاني اليوم من انفراط عقد الأسرة، والتقنين للممارسات الجنسية بدون أدنى رباط، فكثر حمل المراهقات، وكثر أبناء الزنا، وعمت الأسر ذات العائل الواحد، وتفشت الأمراض والأوباء والعلل مما لم يكن معروفاً من قبل، وقننت الحكومات في الكثير من دول العالم اليوم التشريعات للعلاقات الشاذة، وصرحت بتبني الأطفال وتنشئتهم في وسط الشواذ ـ وهي عملية مدمرة للفطرة الإنسانية ـ فكثرت الأزمات النفسية وأمراضها، وتضاعفت معدلات كل من الإدمان

والجريمة والانتحار، وملئت أكثر المجتمعات البشرية ثراء وتطوراً مادياً بأخطر مشاكل المجتمعات الإنسانية تعقيداً على الإطلاق..!!!

ومن هؤلاء الذين لا يعرفون لهم أباً، والذين خرجوا إلى الحياة بطرق غير مشروعة، ونشأوا في بيئات فاسدة، وبين سلوكيات منحطة وضيعة من يمكن أن يصل إلى مقام السلطة في دول تملك من تقنيات ووسائل الغلبة المادية، ومن مختلف أسلحة الدمار الشامل ما يمكن أن يعينه على البطش بالخلق، وإفشاء الظلم، وتدمير الحياة على الأرض، وإفساد بيئاتها والقضاء على مختلف صور الحياة فيها..!!! ولا يجد من دين أو خلق أو منطق أي رادع يمكن أن يرده عن ذلك.

وأغلب وسائل الإعلام قد وقعت اليوم في أيدي غلاة اليهود المتعصبين لأسطورة «شعب الله المختار»، في مؤامرة خسيسة على الإنسانية ـ وهم بهذا أشد الناس عداوة للذين آمنوا بصفة خاصة وللإنسان غير اليهودي ـ بصفة عامة ـ فوظفوا كافة تلك الوسائل الإعلامية في تدمير البقية الباقية من عقائد وأخلاقيات وسلوكيات المجتمعات الإنسانية، وفي تشويه صورة الإسلام في أذهان الناس؛ وذلك لأنه مما يسوؤهم أن يروا الإسلام ينتشر في مجتمعاتهم في الوقت الذي يتصورون أنهم قد أحاطوا بالإسلام والمسلمين إحاطة كاملة. وعلى الرغم من كل ذلك فإنه قمم الفكر والعلم والرأي؛ تقبل على الإسلام اليوم في الغرب والشرق لأنهم يرون فيه المخرج الوحيد من الوحل النتن الذي غاصت فيه مجتمعاتهم.

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو (الإعجاز العلمي في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة)؛ لأننا نعيش في زمن أدار فيه غالبية الناس ظهورهم للدين، وأصبحت قضايا الغيب المطلق (من حساب في القبر، وبعث بعد الموت، وعرض أكبر أمام الله الخالق، وخلود في حياة

قادمة: إما في الجنة أبداً، أو في النار أبداً)، وغيرها من قضايا الدين لا تحرك فيهم ساكناً، ولكنهم في نفس الوقت قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة. فإذا أشرنا إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون قبل أن يصل الإنسان إلى شيء منها بالمئات العديدة من السنين ـ وهو الكتاب الذي أنزل على نبي أمي ﷺ، في أمة كان غالبيتها الساحقة من الأميين ـ من قبل ألف وأربعمائة سنة فإن ذلك سوف يحرك عقولهم وقلوبهم، وسوف يحضهم على قراءة كتاب الله الذي ما اطلع عليه عاقل ـ حتى في ترجمة لمعانيه ـ إلا وشهد له بأنه لا يمكن أن يكون كلام أحد غير الله الخالق ﷻ.

وفي ذلك تقليل من حجم الكراهية الشديدة التي غرستها وسائل الإعلام الصهيونية/ الصليبية في قلوب الملايين من الأفراد للإسلام والمسلمين، وفيه دعوة مستنيرة إلى دين الله، وما أحوجنا للدعوة لهذا الدين الخاتم في زمن التحدي بالعولمة الذي نعيشه، والذي يتهدد كافة شعوب الأرض بالذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة..!! وفي زمن الاستعلاء الأنجلو/ أمريكي/ الإسرائيلي اللعين الذي يتهدد منطقتنا بأكملها بالدمار في ظل تفكك القيادات العربية والمسلمة، وتشرذمهم، وتخاذلهم، وانصياعهم للأوامر المعادية لشعوبهم ولدينهم ولأخلاقهم وقيمهم، وفقدهم الثقة بالله، وخوفهم المزعوم من الشبح الأمريكي اللعين الذي لا يصمد أبداً أمام قدرة رب العالمين. وإسلامنا العظيم يعلمنا أنه من معاني (لا إله إلا الله) أنه لا سلطان في هذا الوجود لغير الله، وأننا لو رجعنا إلى ربنا بصدق وتمسكنا بإسلامنا في تجرد وإخلاص لنصرنا الله ـ تعالى ـ كما نصر أسلافنا العظام من قبل. ومن أهم وسائلنا في ذلك حسن الدعوة إلى دين الله باللغة التي يفهمها أهل عصرنا، وهي لغة العلم.

ولا يمكن أن يصدنا عن ذلك دعوى أن عدداً من المفسرين السابقين الذين تعرضوا لتفسير بعض الآيات الكونية في كتاب الله قد تكلفوا في تحميل تلك

الآيات من المعاني ما لا تحتمله؛ وذلك بسبب نقص في وفرة المعلومات العلمية أو جهل بها. وكما سبق وأن أوضحنا فإن التفسير لآيات القرآن الكريم هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة تلك الآيات إن أصاب فيها المرء فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد، والمُعَوَّل عليه في ذلك هو النية، وأن الخطأ في التفسير لا ينال من جلال القرآن الكريم، ولكنه ينعكس على المفسر؛ خاصة وأن الذين فسروا باللغة أصابوا وأخطأوا، والذين فسروا بالتاريخ أصابوا وأخطأوا، ولم ينل ذلك من قدسية القرآن الكريم ومكانته في قلوب وعقول المؤمنين.

أما اليوم وقد توافر للإنسان من المعرفة بحقائق الكون وسننه ما لم يتوافر لجيل من البشر من قبل، فإن توظيف ذلك الكم الهائل من المعلومات الصحيحة من أجل حسن فهم دلالة الآية القرآنية، وإثبات سبقها التاريخي لكافة البشر يعتبر ضرورة إسلامية لتثبيت إيمان المؤمنين، ولدعوة الضالين من الكفار والمشركين والذين سوف يسألنا ربنا ﷻ عن تبليغهم بهذا الدين، ودعوتهم إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، وباللغة التي يفهمونها.

والأخطاء التي وقع فيها عدد من المفسرين الذين تعرضوا للآيات الكونية في كتاب الله، فتكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحتمله في تعسف واضح وتكلف جلي، يحملونه هم ولا تحتمله آيات الكتاب المبين؛ لأن التفسير يبقى جهداً بشرياً منسوباً لصاحبه بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال، وإن كان عدد منهم قد جاوز الصواب، فإن أعداداً أوفر قد وفقت في ذلك أيما توفيق.

ولم تكن أخطاء بعض المفسرين محصورة في شرح دلالة بعض الإشارات الكونية فقط، فهنالك عدد من كتب التفسير التي استشهدت بالإسرائيليات الموضوعة، أو امتلأت بالعصبيات المذهبية الضيقة، وغير ذلك مما لا يقبله العقل القويم، ولا يرضاه الصحيح المنقول عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه المكرمين والتابعين، ولا يرتضيه المنطق اللغوي السليم؛ فالمعتزلة على

سبيل المثال ـ لا الحصر ـ قد حاولوا في تفاسيرهم إخضاع الآيات لمبادئهم في العدل والتوحيد وحرية الإرادة والوعد والوعيد وإنكار الرؤية وغيرها، وتعسفوا في ذلك أيما تعسف. والشيعة ـ على اختلاف فرقهم ـ قد دفعتهم المغالاة في حب آل البيت إلى التطرف في تأويل بعض الآيات القرآنية تأويلاً لا يحتمله ظاهر الآيات، ولا السياق القرآني ولا القرائن المنطقية المختلفة. وكذلك المُتصوِّفة والإشاريون؛ فهم على الرغم من تسليمهم بالمأثور من التفسير، وقبولهم للمعنى الذي يدل عليه اللفظ العربي السليم ـ يسمحون لأنفسهم باستنباط معانٍ للآيات تخطر في أذهانهم عند التلاوة وإن لم تدل عليها الآيات القرآنية الكريمة بطريق من طرق الدلالات المعروفة في الاستعمال العربي للغة وطرائق التعبير فيها. أما المنحرفون من أتباع الفرق الباطنية وإفرازاتها القديمة والحديثة فتمتلئ تفاسيرهم بالانحرافات التي تنطق بالتعسف والافتعال، ومحاولات تطويع القرآن الكريم لمبادئهم المضللة في تكلف ملحوظ.

مع كل ذلك هل يمكن أن يتوقف علم التفسير عند حدود جهود السابقين من المفسرين ـ على فضلهم وفضل ما قدموه لخدمة فهم القرآن الكريم في حدود المعرفة المتاحة في أزمنتهم؟ ـ بالقطع لا؛ لأن القرآن الكريم أنزل للناس ليتدبروا آياته، ويفهموا دلالاته، ويعيشوا معانيه، ويتخذوه دستوراً كاملاً ونظاماً شاملاً لحياتهم، وهذا لا يتأتى بالوقوف به عند جهود السابقين. علماً بأن كتب التفسير تحوي تراثاً دينياً، وفكرياً وتاريخياً لهذه الأمة لا يمكن التضحية به، حتى ولو كانت به بعض الأخطاء أو التجاوزات، إلا إذا كان القصد الواضح هو التحريف، وهو أمر لا يصعب على عاقل إدراكه.

٩ ـ إن الإعجاز في الآيات الكونية الواردة في كتاب الله يتلخص في سبق هذا الكتاب الكريم بأكثر من عشرة قرون كاملة لجميع المعارف المكتسبة؛ وذلك بالإشارة إلى عدد من حقائق الوجود التي لم تعرف إلا منذ عقود قليلة. وهذا السبق العلمي لكتاب أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرناً على نبي أُمي ـ ﷺ ـ

وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي عالم تميز بالجهالة الكاملة في هذه الأمور، وبالافتقار إلى أبسط وسائل وأجهزة الكشف العلمي هو الذي يجسد جانب الإعجاز لأن هذا السبق لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدراً غير الله الخالق. ومن هنا فلا بد من توسيع المدلول اللغوي لكلمة (المعجزة) ليشمل هذا السبق العلمي. كذلك لا بد من التأكيد على أن الادعاء بأن في وصول عدد من العلماء إلى معرفة شيء من حقائق الوجود ما يمكن أن يخرج الإشارات الكونية الواردة في القرآن الكريم عن تلك الحقائق من دائرة الإعجاز هو قول غير صحيح لأن الإعجاز هنا يتمثل في قضية السبق الزمني لجميع المعارف المكتسبة بعدد من القرون المتطاولة.

من كل ما سبق يتضح لنا أن حجج المضيقين في رفض تفسير الإشارات الكونية في كتاب الله على ضوء ما تجمع اليوم لدى الإنسان من معارف بالكون وعلومه هي كلها حجج مردودة، فالكون صنعة الله، والقرآن الكريم هو كلام خالق الكون وواضع نواميسه، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي أودعها في خلقه إذا اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين؛ فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه، وتظل تلك المعاني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، وهذا ـ عندي ـ من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله.

ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية، وضرورة مراجعة تراجمها إلى اللغات الأخرى بطريقة دورية. أما آيات العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات فقد صيغت صياغة محكمة يفهم دلالتها كل مستمع إليها مهما قلت ثقافته أو زادت؛ لأن تلك الآيات تمثل ركائز الدين الذي هو صلب رسالة القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله الكريم: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقوله العزيز: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

وقوله الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿. . . وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

أما الآيات المتعلقة بذات الله وصفاته، وبالروح وأسرارها، وبالملائكة والجن، وبحياة البرزخ وحساب القبر، وبالبعث، والحساب، والجنة، والنار، وبالآخرة وما فيها من الغيوب وغير ذلك من الأمور الغيبية غيبة مطلقة فلا يملك المسلم حيالها إلا الإيمان بما جاء عنها في كتاب الله ـ تعالى ـ وفي سنة رسوله ﷺ، والتسليم في فهمها لنص القرآن الكريم أو للمأثور من تفسير المصطفى ﷺ؛ لأن الإنسان لا يمكن له أن يصل إلى عالم الغيب المطلق إلا ببيان من الله الخالق أو بخبر من خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وذلك لأن قدرات عقل الإنسان المحدودة، وحواسه المحدودة لا يمكن لهما اجتياز حدود عوالم الغيوب المطلقة مهما أوتي الإنسان من أسباب الذكاء والفطنة؛ ومن هنا كان امتداح القرآن الكريم للذين يؤمنون بالغيب.

ثانياً: موقف الموسعين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد قصدت لذاتها، أي: لدلالاتها العلمية المحددة، مع التسليم بوجوب استخلاص الحكمة والعبرة منها والوصول إلى الهداية عن طريقها؛ وانطلاقاً من ذلك فقد قام

أصحاب هذا الموقف بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله، وتصنيفها حسب مختلف التصانيف المعروفة في مختلف مجالات العلوم البحتة والتطبيقية، ثم اندفعوا في حماسهم لهذا الاتجاه إلى المناداة بأن القرآن الكريم يشمل جميع العلوم والمعارف. ولابد لحسن فهم تلك الإشارات الكونية في كتاب الله من تفسيرها على ضوء اصطلاحات تلك العلوم، ثم زاد البعض بمحاولة إثبات أن جميع حقائق العلوم البحتة والتطبيقية التي استخلصها الإنسان بالنظر في جنبات الكون هي موجودة في القرآن الكريم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وهذا في رأينا موقف مبالغ فيه، فالسياق القرآني في الآيتين السابقتين لا يتماشى مع ما وصلوا إليه من استنتاج؛ لأن هاتين الآيتين الكريمتين تشيران إلى رسالة القرآن الكريم الأساسية، وهي الدين بركائزه الأربع الأساسية: العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات، وهي القضايا التي لا يمكن للإنسان أن يضع لنفسه فيها أية ضوابط صحيحة. ولذلك استوفاها القرآن استيفاء لا يقبل إضافة. أما قصص الأمم السابقة، والإنباء ببعض الغيوب، والإشارات الكونية، وكل من القضايا التربوية والنفسية والإدارية والاقتصادية وغيرها مما جاء به القرآن الكريم؛ وبخاصة الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، فقد جاء هذا الكتاب العزيز بنماذج منها فقط تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة على الخلق وبالقدرة على إفنائه وإعادته من جديد، كما تشهد على وحدانية الله المطلقة فوق جميع خلقه.

وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن القرآن الكريم لم يخبرنا إلا عن خمسة وعشرين نبياً من أنبياء الله، بينما روي عن رسول الله ﷺ أن عدد الأنبياء بلغ مئة وعشرين ألفاً، وأن الله اصطفى من هذا العدد الكبير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً.

وربما كان هذا الموقف الموسع من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تحفظ المتحفظين من الخوض في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله على

أساس من معطيات العلوم البحتة والتطبيقية، أو التعرض لإظهار جوانب الإعجاز العلمي فيها.

ثالثاً: موقف المعتدلين في التفسير العلمي للقرآن الكريم:

يرى أصحاب هذا الموقف أنه مع التسليم بأن القرآن الكريم هو في الأصل كتاب هداية ربانية، أساسها الدعوة إلى العقيدة الصحيحة، والأمر بالعبادات المفروضة، والحث على الالتزام بمكارم الأخلاق، وعلى التعامل بين الناس بالعدل والإحسان؛ أي أنه دستور كامل للحياة في طاعة خالق الكون والحياة. ومع التسليم كذلك بأن الإشارات الكونية الواردة في كتاب الله قد جاءت في معرض التذكير بقدرته المطلقة وببديع صنعه في خلقه، وشمول علمه، وكمال صفاته وأفعاله؛ إلا أنها تبقى بياناً من الله خالق الكون ومبدع الوجود، ومن أعلم بالكون من خالقه؟!

من هنا كانت تلك الإشارات الكونية كلها حقاً، وكانت كلها منسجمة مع قوانين الله وسننه في الكون، وثابتة في دلالاتها ـ مهما اتسعت دائرة المعرفة الإنسانية ـ فلا تعارض ولا تناقض ولا اضطراب، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

من هنا أيضاً كان واجب علماء المسلمين في كل عصر من العصور إعادة مدارسة تلك الآيات الكونية، والاستفادة بكل أنواع المعارف المتاحة في تفسيرها، وإظهار جوانب الإعجاز فيها، تأكيداً لإيمان المؤمنين، ودعوة ناجحة لغير المسلمين باللغة التي يفهمونها؛ ودحضاً لافتراءات المفترين، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة: أن القرآن الكريم هو كلام الله في صفائه الرباني، وإشراقاته النورانية، والحق المطلق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرناً الماضية، وتعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بحفظ كتابه الكريم تعهداً مطلقاً حتى يبقى هذا الكتاب (القرآن الكريم) حجة على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، وشاهداً للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد اقتضت ترك كل معرفة ـ غير أصول الدين ـ مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين يتنافس فيه المتنافسون ويتبارى فيه المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. فلو أن الإرادة الإلٰهية قد ارتضت بسط الكون بكل حقائقه كاملة أمام الإنسان لانتفت الغاية من الحياة الدنيا، وهي دار ابتلاء واختبار، ولاختفى ذلك الغيب الذي يشد الإنسان إليه بجميع حواسه وكل قواه العقلية والفكرية، ولتبلدت تلك الحواس والقدرات، ولمضت حياة الإنسان على الأرض رتيبة كئيبة بائسة، جيلاً بعد جيل، وعصراً بعد عصر، بغير تجديد أو تنويع أو إبداع، وسط عالم يتميز بالتغير في كل أمر من أموره وفي كل لحظة من لحظات وجوده. هذا فضلاً عن أن العقل البشري عاجز عن تقبل الحقائق الكونية الكبرى دفعة واحدة، وأنه محتاج في فهمها إلى شيء من التدرج في الكشف وفي استخراج الأدلة وإثباتها، وفي تكامل معطياتها على مدى أجيال متعاقبة، بالتجربة والملاحظة والاستنتاج، وباستقراء سنن الله في الكون.

ويستدل أصحاب هذا الموقف المعتدل بما يلي:

١ ـ الحشد الهائل من الإشارات الكونية في كتاب الله، ومطالبة القرآن الكريم للإنسان دوماً بتحصيل المعرفة النافعة على إطلاقها، وهذه أولى آيات القرآن العظيم تأمر بذلك وتحدد وسائله، وتحض على التأمل في الخلق، بل وتشير إلى حقيقة علمية لم تكتشف إلا بعد ذلك بقرون طويلة ألا وهي: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾؛ وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا بعد اكتشاف المجاهر المكبرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين، وفي ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

٢ ـ ما يقرره القرآن الكريم من مسئولية الإنسان عن حواسه وعقله وما يفرضه من ضرورة حسن استخدامهما في التعرف على الكون، واكتساب المعارف

النافعة منه، وتوظيف ذلك في حسن فهم كتاب الله، حيث يقرر الحق ـ تبارك وتعالى ـ مسؤولية الإنسان عن حواسه وذلك بقوله في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٣ ـ رفض القرآن الكريم للتقليد والجمود على الآراء الموروثة الخاطئة، والحكم بالظن والهوى، ومطالبته الإنسان دوماً بتأسيس الأحكام على الدليل العقلي الذي لا يقبل النقض. وهذه كلها من أخص خصائص المنهج التجريبي في دراسة الكون وما فيه.

٤ ـ تكريم القرآن الكريم للعلم والعلماء ـ بمن فيهم من علماء الكونيات ـ في العديد من آيات الذكر الحكيم نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

والآية الأخيرة قد وردت بعد استعراض لكثير من المشاهد الكونية، مما يؤكد أنها تشمل علماء الكونيات وإن لم يكونوا هم المقصودين بها مباشرة، فالآية تنطق: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

٥ ـ مطالبة القرآن الكريم للإنسان ـ في تشديد واضح ـ بالنظر في كل ما خلق الله. وهذه أوامره صريحة جلية نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

٦ ـ وينتصر أصحاب هذا الموقف المعتدل لموقفهم بما ينعاه القرآن الكريم على الغافلين عن التفكير في آيات السموات والأرض، وذلك في كثير من آياته التي منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

ويصف القرآن الكريم هؤلاء الغافلين بأنهم كالأنعام بل هم أضل، ويقرر بأن جزاءهم جهنم عقاباً لهم على إهمالهم نعم الله التي أنعم بها عليهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

٧ ـ ويستشهدون على ضرورة توظيف المعارف العلمية المتاحة لفهم دلالة الآيات الكونية في كتاب الله بربط القرآن الكريم دوماً بين الإيمان بالله والنظر فيما خلق وذلك من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ

لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقوله: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

٨ ـ ويستشهد المنادون بضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية في كتاب الله بالإشارة إلى أن القرآن الكريم ـ في استعراضه لأمور الكون ـ يتناول كليات الأشياء تاركاً التفاصيل لاجتهاد الإنسان، ولكنه في نفس الوقت ينبه باستمرار إلى جوانب مهمة من مثل «الكم» و«الكيف» وهما من أسس العلوم التجريبية؛ «الكم» الذي يتعلق بالحجم والكتلة وبالزمان والمكان، وبدرجات النمو والاندثار وغيرها يتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي نختار منها قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]، وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

وبخصوص «الكيف» بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ومسبباتها، ومجرى الظواهر الكونية وحدوثها، والسنن الإلٰهية وجريانها فإن القرآن الكريم يشدد التنبيه عليها في مواضع كثيرة منها قول الله تعالى:

﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]. وقوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥، ٤٦].

وقوله عز من قائل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢٠].

٩ ـ ويستشهد أصحاب هذا الموقف المعتدل كذلك على ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية بتأكيد القرآن الكريم أن لكل شيء في هذا الكون فطرته السوية التي فطره الله عليها، والتي تخصه وتميزه، وهي قاعدة أساسية من قواعد المنهج العلمي التجريبي في الكشف عن حقائق هذا الكون ومكوناته وسنن الله فيه، ونقرأ في ذلك قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

وأن هذه الفطرة ثابتة، لا تتغير ولا تتبدل لقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وأن هذه الفطرة خاضعة لقوانين مطردة، لا تتخلف ولا تتوقف إلا بإذن الله، وأنه لولا ثبات تلك الفطرة واطراد القوانين التي تحكمها ما تمكن الإنسان من اكتشاف أي من أمور هذا الكون، وأن القرآن الكريم يصر على تسمية تلك القوانين بالحق، وعلى أن الكون وما فيه خلق بالحق، ويطالب الإنسان بالتعرف على ذلك الحق والتزامه، فالتنزيل ينطق بقول الله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الأحقاف: ٣]. وقوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً

وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]. وقوله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

١٠ ـ كذلك فإن الذين يرون ضرورة توظيف المعارف العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله وفي الاستشهاد على الإعجاز العلمي لتلك الآيات ينتصرون لذلك بأن أكثر من أربعين سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها (١١٤) سورة تحمل أسماء لبعض أشياء الكون وظواهره، ويستشهدون بعرض القرآن الكريم للعديد من القضايا التي هي من صميم العلوم التجريبية من مثل خلق السمٰوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، واتساع الكون، وفتق السمٰوات والأرض، وبدء تكون السماء بدخان، وخلق الحياة من الماء وفي الماء، واستعراض مراحل الجنين في الإنسان، وغير ذلك كثير مما لا يوفيه في هذا المقام حصر، ولكن تكفي الإشارة إلى آيات قليلة منها من مثل قول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وقوله ـ عز من قائل ـ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

وآيات الكتاب الحكيم في كل ما عرضت له من أمور الكون تتميز بمنتهى الدقة في التعبير، والشمول في المعنى، والإحاطة في الدلالة، وبالسبق الإخباري بحقائق لم يتيسر للإنسان إلمام بها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين. وهذا بالقطع يشكل صورة من صور الإعجاز لم تتوفر لجيل من الأجيال من قبل.

وخلاصة القول أن القرآن الكريم يزخر بالعديد من الآيات التي تشير إلى الكون وما به من كائنات ـ جمادات وأحياء ـ وإلى صور نشأتها ومراحل تكوينها، وإلى العديد من الظواهر الكونية المصاحبة لها، وقد أحصى الدارسون من مثل

هذه الآيات حوالي ألف آية صريحة، بالإضافة إلى آيات أخرى عديدة تقرب دلالاتها من الصراحة، مما يبلغ بعدد الآيات الكونية إلى سدس مجموع آيات القرآن الكريم تقريباً. ويقف المفسرون من هذه الآيات الكونية مواقف متعددة فمنهم المضيقون والموسعون ومنهم المعتدلون.

فالمضيقون يرون أن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم لذاتها، وإنما وردت من قبيل الاستدلال على قدرة الله ـ تعالى ـ وإبداعه في خلقه، وقدرته على إفناء الخلق ثم بعثه، ولإثبات وحدانية الخالق المطلقة فوق جميع خلقه، ومن ثم فلا يجوز تفسيرها في ضوء معطيات العلوم الحديثة؛ وذلك بدعوى انطلاق الكتابات العلمية من منطلقات مادية، منكرة لكل ما هو فوق المدرك المحسوس.

أما **الموسعون** فيرون أن القرآن الكريم يشتمل على جميع العلوم والمعارف، ولا بد لحسن فهم ذلك من تفسيره على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من رصيد علمي خاصة في مجال العلوم البحتة والتطبيقية، ومن ثم فقد قاموا بتبويب آيات الكونيات في كتاب الله وتصنيفها حسب التصانيف المعروفة في مختلف مجالات تلك العلوم، وتميز ذلك بشيء من التكلف الذي أدى إلى رفض المنهج والوقوف في وجهه.

أما **المعتدلون** فيرون أنه مع التسليم بأن الإشارات الكونية في القرآن الكريم قد وردت في معرض التذكير بقدرة الله، وبديع صنعه في الخلق وفي الاستشهاد على قدرته ﷻ على الإفناء والبعث، فإنها تبقى بياناً من الله، خالق الكون ومبدع الوجود، ومن ثم فهي حق مطلق. ولا غرابة إذن من انسجامها مع قوانين الله وسننه في الأنفس والآفاق، ومع معطيات العلوم الحديثة عن حقائق هذا الوجود. كذلك فإنهم يرون أنه مع التسليم بأن تلك الإشارات لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ المباشر بالحقيقة العلمية؛ لأن الحكمة الإلٰهية قد اقتضت ترك ذلك لاجتهاد الإنسان على مر الزمن، إلا أنها تتميز بالدقة المتناهية في التعبير، والإحاطة في الدلالة، والشمول في المعنى، بحيث يدرك فيها أبناء كل جيل ما يتناسب مع مستوياتهم الثقافية، وما وصلوا إليه من علوم، ثم إن تلك الدلالات

تتميز كلها بالسبق إلى الحقيقة الكونية قبل أن تدرك الكشوف العلمية شيئاً منها بقرون طويلة، وهذا في حد ذاته يمثل الإعجاز العلمي في القرآن الكريم الذي هو أحد أوجه الإعجاز العديدة في كتاب الله. خاصة وأن القرآن الكريم قد تم إنزاله من قبل ألف وأربعمائة سنة على نبي أُمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي ذلك يقول هذا الكتاب العزيز عن رب العالمين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولذلك يبقى الإعجاز العلمي في كتاب الله من أنسب وسائل الدعوة إلى دين الله في عصر التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه تثبيتاً لإيمان المؤمنين، ودعوة للجاحدين من مختلف صور المشركين والكافرين والضالين، في عالم تحول إلى قرية كبيرة، ما يحدث في أحد أركانها يتردد صداه في بقية أرجائها، ولا يأمن أهل الحق أن يصيبهم ما أصاب الأمم الضالة من عقاب، أو أن يجرفهم تيار الحضارة المادية فيذيبهم في بوتقتها، وبذلك يخسرون الدنيا والآخرة. وطوق النجاة في الحالتين يتمثل في الاعتزاز بالإسلام العظيم، والتمسك بالقرآن الكريم الذي يتجلى إعجازه العلمي في عصر العلم الذي نعيشه يوماً بعد يوم، وجيلاً بعد جيل حتى يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها. وفي ذلك يقول المصطفي ﷺ: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**» (البخاري ومسلم).

رابعاً: الرد على معارضي الإعجاز العلمي في القرآن الكريم:

في الردّ على المعارضين لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم نؤكد على أن المعرفة الإنسانية كلٌّ لا يتجزأ، ولكنها تُصَنَّف في محاور متعددة من أجل التيسير على الدارسين. وقد سبق لنا تصنيفها في شكل هرمي على النحو التالي:

١. قاعدة الهرم وتحتوي كل (العلوم البحتة والتطبيقية) ـ على اختلاف مجالاتها ـ. ووضعها في قاعدة الهرم المعرفي للإنسان ليس من قبيل الاستهانة بها، ولكن

بسبب كونها وسيلة إعمار الحياة المادية على الأرض، وإتقانها هو من وسائل عون الإنسان على حسن القيام بواحد من أهم واجبات الاستخلاف في الأرض؛ بعمارة مختلف النواحي المادية فيها.

٢. ويأتي فوق العلوم البحتة والتطبيقية (فلسفاتها): بالمعنى الإسلامي للفلسفة وهو حب الحكمة؛ أي استخراج الحكمة من كل أمر مادي يراه العالم المتخصص، وكل ظاهرة كونية يرصدها؛ لأن الحكمة ـ كما وصفها رسول الله ﷺ ـ هي ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أولى الناس بها.

٣. ويأتي فوق فلسفة العلوم كل (الدراسات الإنسانية)؛ لأن الإنسان في الإسلام مخلوق مكرم، وكل ما يتعلق بهذا المخلوق المكرم لا بد أن يكون مكرماً.

٤. ويأتي فوق الدراسات الإنسانية (فلسفاتها)؛ بمعنى استخراج الحكمة من كل علم من هذه العلوم الإنسانية (اللغات بمختلف آدابها، الفنون النافعة بمختلف أشكالها، التاريخ، الجغرافيا، الاقتصاد، المحاسبة، الإدارة، علم النفس، علم الاجتماع، علم دراسة الإنسان، علم الجريمة، العلوم السياسية، الدراسات القانونية، وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالإنسان وسلوكياته).

٥. ويأتي في قمة الهرم (وحي السماء) وما يشمل من دراسات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وما بهما من قواعد العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات وما ينظم ذلك من تشريعات؛ لأن وحي السماء هو بيان من الله ـ تعالى ـ للإنسان في القضايا التي يعلم ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بعلمه المحيط أن الإنسان يعجز عجزاً كاملاً عن وضع أية ضوابط صحيحة لنفسه فيها، ومن هنا كانت ضرورة الوحي بالدين.

وهذا الهرم المعرفي لا يمكن لأحد من الناس أن يحيط به إحاطة كاملة، ومن هنا وجب على كل متعلم أن يتخصص في شريحة من شرائح هذه المستويات الخمسة، ولكن لكي يفهم الإنسان حقيقة رسالته في هذه الحياة، ويتعلم ضوابط تحقيقها على الوجه الذي يرتضيه الله فلا بد له من الإلمام بشيء عن كل واحد من

المستويات الأخرى: ليحقق شمولية المعرفة التي تميزت بها الحضارة الإسلامية عبر التاريخ، والثقافة العامة التي يحتاجها كل متخصص.

ولكن في أزمنة التخلف والانحطاط التي عاشتها الأُمتان العربية والإسلامية خلال القرنين الماضيين ـ ولا تزال تعيشها في مطلع القرن الحالي ـ انتقل إلينا من الغرب مرض (الفصل بين المعارف)، وإن كان لذلك مبرراته في الحضارة الغربية، فلا مبرر له على الإطلاق في عالم الإسلام. فالحضارة الغربية قامت على فصل الدين عن الدولة، وفصل المعارف المكتسبة عن الدين فصلاً كاملاً، بينما في الإسلام العظيم يطبق الدين نظاماً كاملاً شاملاً للحياة.

وبتقليد الغربيين في الفصل بين التعليم الديني والتعليم المدني تخلَّفت المجتمعات المسلمة تخلُّفاً ملحوظاً، وذلك بسبب تخرج علماء شرعيين قد يكونون على أعلى مستوى يدرك في تخصصاتهم، ولكن لعزلتهم عن المعطيات الكلية للمعارف المكتسبة انعزلوا عن مجتمعاتهم انعزالاً كاملاً ـ إلا من رحم ربك ـ. وبالمقابل فإن جامعاتنا تُخَرِّج علماء مدنيين قد يحققون التفوق في تخصصاتهم، ولكن لعزلتهم عن الدين لم يروا أدنى رابط بين العلوم المكتسبة والدين ـ إلا من رحم ربك ـ! وهذا يشكل وجهاً من أوجه أزمة التعليم المعاصر في عالمنا الإسلامي.

ويجسِّد هذه الأزمة اختلاف علماء الأمة حول (قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم): فالعلماء الشرعيون ـ بحكم تخصصاتهم ـ يرون أن معجزة القرآن الكريم هي معجزة بيانه ونظمه فقط، والتي أدرك أساطين اللغة العربية فيها ـ ومنذ سماع أولى آيات القرآن تتلى عليهم ـ أنها علامة فارقة بين كلام الله ـ تعالى ـ وكلام عباده من البشر الذين خلقهم بعلمه وحكمته وقدرته. في المقابل يرى المتخصصون في العلوم المكتسبة أنه لا توجد أدنى علاقة بين المعارف المكتسبة ووحي السماء!

ولحل هذا الإشكال قام نفر من علماء المسلمين بالجمع بين الثقافتين الدينية والمكتسبة؛ فأثبتوا بالأدلة المنطقية التي لا يرفضها عاقل أن القرآن الكريم

ـ لكونه كلام الله ـ في صفائه الرباني وإشراقاته النورانية ـ لا بد أن يكون معجزاً في كل أمر من أموره: في بيانه ونظمه، في فصاحته وبلاغة أسلوبه، في كمال رسالته ودقة مضامينه، ومنها مجموع العقائد التي يدعو الناس إلى الإيمان بها، ومجموع العبادات التي يأمرهم بأدائها، والدستور الأخلاقي الذي يدعوهم إلى الالتزام به، ودستور المعاملات التي شرعها لهم. ومنها استعراضه لتاريخ عدد من الأمم البائدة ومواقفها من أنبياء الله ورسله، ومنها أسلوب القرآن التربوي الفريد، وخطابه إلى النفس الإنسانية وارتقائه بها، وفي إنبائه الصادق بالغيب القريب والبعيد، وفي إشاراته العلمية الصحيحة والدقيقة إلى الكون ومكوناته وظواهره، وإلى الإنسان وخلقه وإفنائه وبعثه، وإلى مراحل الأجنة التي يمر بها نسله، وإلى غير ذلك من حقائق الوجود.

وسَبقُ القرآن الكريم بالعديد من الحقائق العلمية قبل وصول المعارف المكتسبة إليها بعدة قرون هو المقصود بتعبير (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، بمعنى أن هذا الكتاب العزيز قد سبق بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وظواهره التي لم تتوصل إليها معارف الإنسان المكتسبة إلا بعد قرون عديدة من تنزل القرآن الكريم يزيد عددها في كثير من الأحيان عن عشرة قرون كاملة في أقل التقديرات لها. ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذا الكم الهائل من الحقائق القرآنية مصدراً غير الله الخالق ـ سبحانه ـ حيث لم يكن ممكناً لأحد من البشر إدراك شيء من هذا الحق في زمن الوحي ولا لقرون عديدة من بعده بوسائل العلم البشري المكتسب. وفي إثبات ذلك تأكيد لكل عاقل ـ بصفة عامة ـ ولأهل العلم وطلاب الحق ـ بصفة خاصة ـ أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، وحفظه حفظاً كاملاً على مدى أربعة عشر قرناً أو يزيد، وتعهد بهذا الحفظ تعهداً مطلقاً؛ حتى يبقى القرآن الكريم شاهداً على جميع الخلق إلى يوم الدين بأنه كلام رب العالمين، وشاهداً لنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

و(الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) هو أسلوب فريد في الدعوة إلى دين الله الخاتم بلغة مناسبة لعصر تَفَجُّر المعرفة العلمية الذي نعيشه. وقد سبق الإخبار بتحقيق وقوعه في حياة الناس من قبل أربعة عشر قرناً وذلك في عشرات الآيات القرآنية الكريمة التي منها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما المضيقون الذين يَقْصُرون (الإعجاز في القرآن الكريم) على بيانه ونظمه فقط بدعوى أنه الجانب الذي تحدي به العرب زمن الوحي فيما كانوا يجيدونه ويتقنونه؛ فقد نسوا أن التحدي بالقرآن الكريم لم يكن للعرب فقط بل نزل للجن والإنس، فرادى ومجتمعين، وليس جميعهم يعرف اللغة العربية فضلاً عن إجادتها وإتقانها.

ثم إن الادعاء بأن المثلية التي جاء بها التحدي هي مثلية البيان والنظم فقط ادعاءٌ لا سند له من الكتاب أو السنة أو المنطق السوي، فضلاً عن أن فيه إجحافاً ظالماً بفضل القرآن الكريم؛ لأنه مع إيماننا التام بأن بيان القرآن ونظمه معجز، إلا أن البيان يبقى إطاراً لمحتوى ومضمون، والمحتوى والمضمون أهم من الإطار وأعظم شأناً! ومحتوى القرآن الكريم هو الدين بركائزه الأربع الأساسية من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات. بالإضافة إلى ما جاء به من قصص الأولين، وأنباء اللاحقين، وإشارات كونية ونفسية واجتماعية واقتصادية وإدارية، وحفظ مطلق على مدى الدهر. ومن هنا جاء التحدي للجن والإنس ـ فرادى ومجتمعين ـ أن يأتوا بشيء من مثله، ولا يزال هذا التحدي قائماً دون أن يواجهه عاقل! وهذا التحدي هو بالقرآن كله وليس فقط ببيانه، وأما القول بثبات القرآن واطراد نمو المعارف الإنسانية المكتسبة باستمرار تقدم تلك المعارف، والانتقال من ذلك إلى الدعوى بعدم جواز تفسير الثابت من الآيات الكونية في كتاب الله بالمتغير من المعارف الإنسانية المكتسبة فهي دعوى ساذجة؛ لأن معناها الجمود على فهم واحد لتلك الإشارات الكونية في كتاب الله، وهذا الجمود يتخلف بالمسلمين عن معايشة عصرهم في كل زمان ومكان، وهو أمر لا يرضاه الله تعالى

لهم.وثبات اللفظ القرآني مع تطور الفهم البشري لدلالاته مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلاً بعد جيل، في تكامل لا يعرف التضاد هو ـ عندي ـ من أعظم أوجه الإعجاز في كتاب الله.

وانطلاقاً من ذلك فإن (الإعجاز العلمي في كتاب الله) يتلخص في صدق كل إشارة علمية جاء بها، وفي سبق هذا الكتاب العزيز بأكثر من عشرة قرون كاملة لجميع المعارف المكتسبة بعدد من الحقائق العلمية الثابتة التي جاءت في أكثر من ألف آية قرآنية كريمة؛ وذلك لأن قيمة الكشف عن أية حقيقة علمية لا بد من أن يؤخذ في إطاره الزمني.

ووصول الإنسان مؤخراً إلى عدد من حقائق الكون التي سبق تنزلها في القرآن الكريم من قبل أكثر من عشرة قرون لا يمكن أن ينفي ومضة الإعجاز العلمي عن هذا الكتاب الخالد؛ لأن الزمن عامل مهم في الحكم على مثل هذه القضايا. أما الاحتجاج بالتعريف اللغوي للفظة (المعجزة) وجمعها (المعجزات) بأنها: الأمر الخارق للعادة، السالم من المعارضة، المقرون بالتحدي لعجز البشر عن الإتيان بمثله، من مثل ما كرَّم الله ـ تعالى ـ به نبيّاً من أنبيائه من فعل خارق للعادة يؤيد به نبوته، واستخدام هذا التعريف في حَجْرِ الإعجاز القرآني في دائرة البيان والنظم فقط؛ فهو احتجاج باطل لأن التعريف اللغوي لإعجاز القرآن الكريم يمكن توسعته ليشتمل على المراد الحق، والتزام الصدق، والدقة البالغة، والتفوق، والسبق في كل أمر من الأمور؛ بحيث يعجز الخلق أجمعون ـ إنسهم وجنهم، فرادى ومجتمعين ـ عن تحقيق شيء من مثله في نفس الزمان والمكان الذي أنزل فيهما. وعلى ذلك يكون من معاني إعجاز القرآن؛ دقته العلمية المطلقة، مع تفوقه وسبقه في كل أمر من أموره. علماً بأن هناك اعتراضاً من عدد من علماء التفسير واللغة على استخدام لفظة (معجزة) لعدم ورودها بهذا المعنى في كتاب الله.

ولقد ناقش عدد من أساتذة التفسير واللغة العربية وآدابها (قضية الإعجاز

العلمي في القرآن الكريم)، وبحكم تخصصاتهم حجروا القضية في إطار البيان والنظم فقط، واختلفوا على النحو التالي:

١. فمنهم من قال بأن الإشارات العلمية في القرآن الكريم لا تعتبر من وجوه الإعجاز، وإنما هي أدلة على أن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ؛ وذلك لأن الإعجاز قائم على التحدي، ولا إعجاز إلا بالتحدي، ويضيف: أنا أرى أن المثلية المطلوبة في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ...﴾ هي المثلية البيانية. فمن لا يعرف العربية لا أتحداه، ولكن أخاطبه بالأدلة الأخرى التي تسمى (دلائل مصدره الرباني). ويضيف أصحاب هذا الرأي قولهم: هذا الذي لا يتكلم العربية أقول له: تعال أعطيك دورة لغة عربية، وعندما تتقن اللغة العربية كأي عربي أقول لك: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ...﴾ وعندها سوف يعجز.

وهنا أترك للقارئ الكريم الحكم على إمكانية تحقيق ذلك! ثم يعمد بعض هؤلاء الإخوة الكرام إلى محاولة التصحيح من موقفه هذا فيقول: ولكن عدم القول بالإعجاز العلمي لا يعني إلغاء الحقائق العلمية في القرآن الكريم، بل يجب تعلمها وتقديمها للناس باعتبارها أدلة على أن القرآن كلام الله. وهل المشتغلون بقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم يطلبون بأعمالهم أكثر من الوصول إلى هذه الحقيقة؟!.

٢. ومن الحاجرين لقضية (الإعجاز في القرآن الكريم) في دائرة بيانه ونظمه فقط عدد من شديدي الانبهار بالحضارة الغربية لدرجة أن أحدهم يصف الطبيب الفرنسي (موريس بوكاي) بقوله: «دعنا نقول إن (موريس بوكاي) هو أصح ذهناً من كثير من المسلمين المعاصرين». ولو فهم هذا الأخ الكريم حقيقة ما كتبه (موريس بوكاي) ما تلفظ بهذه الإساءة إلى آلاف من العلماء المسلمين الذين سبقوا (موريس بوكاي) ولحقوا به وتابعوه وكتبوا ما لم يكتبه (بوكاي)، مع تقديرنا الكبير لما كتب من إنصاف. علماً بأن هذا الطبيب الفرنسي ـ على فضله ـ لم يكتب في إعجاز القرآن ولكنه أشار إلى شيء من الدقة العلمية في عدد من

الآيات القرآنية الكريمة. وقد حمدنا له ذلك لصدوره عن طبيب كاثوليكي ـ لم يكن قد أعلن إسلامه بعد ـ انطلاقاً من قاعدة: والحق ما شهدت به الأعداء، أما الانبهار الزائد عن الحد بكل عمل غربي ـ لمجرد كونه غربياً ـ فهو موقف انهزامي لا يرضاه الله ـ تعالى ـ، ولا يرضاه رسوله، ولا يرتضيه الحكم السوي.

ويضيف هذا الأخ الكريم خطأً آخر بقوله: فمثلاً دوران الأرض حول الشمس فعل واقع وليس نظرية، لكن المدار الذي تدور فيه نظرية، وقد تأتي نظرية فتحدد المدار بشكل أفضل. وهذا تنزيه للنص القرآني عن أن يكون كلاماً في الطب أو الفلك أو الرياضيات أو غير ذلك، ولو علم الأخ الكريم أن مدار الأرض حول الشمس، وكذا مدارات كل أجرام مجموعتنا الشمسية حولها محدد بدقة بالغة ما قال هذا الكلام! ولو قرأ شيئاً عن (ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم) ما وصل إلى مثل هذا الاستنتاج الخاطئ.

أما القول بعدم تسمية الحقائق العلمية الواردة في القرآن الكريم إعجازاً؛ بدعوى أن الإعجاز أساساً هو ثمرة للتحدي، وبدعوى أن الحقائق العلمية التي تضمنها هذا الكتاب العزيز في آيات عدة إنما جاءت في سياق الاستدلال على قدرة الله ـ تعالى ـ لا في سياق التحدي أساساً، فقد سبق أن رددنا عليه في مطلع هذا الفصل.

ويضيف هذا الأخ الكريم قوله: ومن هنا يتم التفريق بين إعجاز القرآن ـ وهو عنده إعجاز نظمه فقط ـ والتفسير العلمي للقرآن ـ ويقصد به الانتفاع بحقائق العلم التجريبي في شرح آياته ـ. وهذه الحقائق تصب في خانة أن القرآن وحي يوحى، ولا تسمى إعجازاً؛ لأن الإعجاز وصف زائد على كونه وحياً. ومن ثم فإن الأدلة التي يسوقها الباحثون في الإعجاز العلمي على أن القرآن وحي لا تدخل في باب الاستدلال على أن القرآن معجز؛ فالقرآن معجز بنفسه وليس

بتفسيرنا له؛ بمعنى أن النص القرآني نفسه معجز سواء فهمنا معناه أم لم نفهم، أو أدركنا المدلول العلمي له أم لم ندركه. وهذا خلط عجيب أرى أن يجلِّيه هذا الكتاب؛ لأن كل وحي لا بد أن يكون معجزاً لصدوره عن الله ـ ﷻ ـ، وكل ما يصدر عن الله الخالق ـ ومنه الوحي بالقرآن ـ لا بد أن يكون معجزاً للإنسان في كل أمر من أموره.

٣. ومن الأساتذة الأفاضل الذين يحصرون إعجاز القرآن الكريم في دائرة بيانه ونظمه فقط من يقول: إن الإعجاز هو أن أهل هذه اللغة عجزوا عن أن يأتوا بمثله، ولذلك فإنهم يفضلون استعمال تعبير **(إعجاز الخلق)** بدلاً من **(الإعجاز العلمي)**؛ بدعوى أن تعبير (الإعجاز العلمي) ليس متفقاً مع الموضوع؛ لأن القرآن لم يتحد البشر أن يأتوا بحقائق علمية. ولست أدري ما هو الفرق بين هذين التعبيرين!

من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن القرآن الكريم هو كلام الله الموحى به إلى خاتم أنبيائه ورسله، بلسان عربي مبين، والمنقول عنه نقلاً متواتراً بلا أدنى شبهة بنفس اللغة التي أوحي إليه بها، والذي تعهد ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وبحفظه حفظاً مطلقاً، والذي نجده في المصاحف التي خطت ثم طبعت على مر العصور، كما نجده محفوظاً في صدور ملايين الحفاظ جيلاً بعد جيل، ومسجلاً على مختلف صور الأشرطة والأسطوانات الممغنطة والمضغوطة، وغير ذلك من صور الحفظ الحاسوبية المتعددة، في الوقت الذي تعرضت كل صور الوحي السابقة للضياع التام، وما بقي من ذكريات عن النادر منها ظلت تنقل شفاهاً من الآباء للأبناء ومن الأجداد للأحفاد، ثم دُوِّنت بأيدي أناس مجهولين ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، بعد قرون من موت أو رفع الأنبياء الذين تلقوها؛ ولذلك فهي صياغة بشرية كاملة بكل ما للبشر من نقص وبعد عن الكمال؛ ولذلك ظلت هذه الكتابات المنحولة تتعرض للتبديل بعد التبديل، وللتحريف والتغيير إلى يومنا هذا، وسوف تظل تتعرض لذلك إلى قيام الساعة.

وعلى ذلك فالقرآن الكريم هو الصورة الوحيدة من كلام رب العالمين الموجود بين أيدي الناس اليوم محفوظاً بحفظ الله في نفس لغة وحيه (اللغة العربية)، محتفظاً بصفائه الرباني وإشراقاته النورانية، والحق الذي أنزل به؛ ولذلك فهو الكتاب الوحيد الذي يتعبد بتلاوته، والذي لا تصلح الصلاة إلا بتلاوة فاتحته، والذي لا يغني عنه في الصلاة شيء من الأحاديث أو الأذكار أو الأدعية.

وبهذه المعالم البينة للقرآن الكريم لا بد أن يكون معجزاً في كل أمر من أموره؛ فما من زاوية من الزوايا ينظر منها إنسان محايد إلى هذا الكتاب العزيز إلا ويرى منها أنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق. وقد عَلِمْنا من جوانب الإعجاز في القرآن الكريم ما يلي: الإعجاز البياني/ النَّظْمي، الإعجاز الاعتقادي، الإعجاز التعبدي، الإعجاز الأخلاقي، الإعجاز التشريعي، الإعجاز التاريخي، الإعجاز النفسي، الإعجاز الاقتصادي، الإعجاز الإداري، الإعجاز العلمي، الإعجاز الإنبائي، الإعجاز العددي/ الرقمي، إعجاز الحفظ، إعجاز التحدي، إعجاز وصف الآخرة، الإعجاز الصوتي، إعجاز ترتيب الحروف، إعجاز المقطعات الهجائية، الإعجاز البنائي للسورة، إعجاز التكرار. وقد يرى القادمون من بعدنا في هذا الكتاب العزيز من أوجه الإعجاز ما لا نعلمه نحن اليوم.

وهذا يعني دقة، وشمول، وإحاطة، وصدق كل ما جاء في كتاب الله من هذه القضايا وغيرها، وسبق القرآن الكريم بالإشارة إلى العديد منها قبل أن تصل مدارك الإنسان إلى شيء منها من أوضح جوانب الإعجاز في كتاب الله. فكل ما جاء فيه حق مطلق يعجز الإنسان عن الإتيان بشيء من مثله، وهذا هو الذي يليق بكلام الله في كل حرف وكلمة وآية وسورة، وفي القرآن كله من أوله إلى آخره؛ فالبشرية لم تعرف كتاباً عالج مثل هذا العدد الكبير من القضايا دون خطأ واحد غير القرآن الكريم. أما محاولة حصر إعجاز القرآن الكريم في بيانه ونظمه؛ فهو جمود على القديم الذي لا يليق بمسلم في القرن الحادي والعشرين.